
شيء من نور
غيد عبدالعزيز الهسي

سلسلة الرواية الأولى

شيء من نور

غيد عبد العزيز الهسي

رواية للفتيات والفتيان



مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
ص.ب ١٩٧٣، رام الله- فلسطين
هاتف: ٠٢ ٢٩٨٦١٢١/٢
فاكس: ٠٢ ٢٩٨٨١٦٠
البريد الإلكتروني: tamer@palnet.com
الموقع الإلكتروني: www.tamerinst.org

Tamer Institute for Community Education
P.O Box: 1931, Ramallah - Palestine
Tel: 02 2986121/2
Fax: 02 2988160
E-Mail: tamer@palnet.com
Website: www.tamerinst.org

الطبعة الأولى ٢٠٠٩




صدر هذا الكتاب بدعم من
الصندوق العربيّ للثقافة والفنون

رسومات: **شريف سرحان**
الإخراج الفني: **أضواء للتصميم. هاتف: 02 2980552**

مقدمة:

تقدمُ مؤسسة تامر هذه الكتب الثلاثة لتجمعَ مبادرات مبدعة لثلاث من الكاتبات الفلسطينيات الشابات. أولت مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي ضمنَ رؤيتها اعتباراً للمجاورات الأدبية بين الشباب الفلسطيني من خلال خلق مساحة من التعبير الحرِّ والتبادلِ الفكريِّ بين فئة الفتيان والفتيات، الذين وجدوا في «أيام أدبية» فرصةً حقيقيةً لمعرفة حاجاتهم وتطوير مهارات التواصلِ فيما بينهم، والأخذ بالاعتبارِ ما تفتقرُهُ مكتباتُهُم من موضوعاتٍ أدبية كُتبت خصيصاً لفئتِهم. هذه الكتب هي: «شيءٌ من نور» للكاتبة الشابة غيد عبد العزيز الهسي، «الصورة» للكاتبة الشابة نجلاء عطا الله، «على رصيف المقهى» للكاتبة الشابة صبا توفيق.

وقد تناولت الكتبُ الثلاثةُ المواضيعَ التي تهمُّ فئة الفتيانِ والفتيات والتي يشعرون بضرورة وجودها ضمنَ كتب تعكسُ تجاربَهم في الحياة، وخصوصية وضعهم كفلسطينيين، وبالأخصّ في قطاع غزةَ، حيث يعانونَ من ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية سيئة، وطبيعةَ أحلامهم وما يريدون أنّ يرَوا عليه الحياةَ في فلسطين المحتلة، وعن أفكارهم وتطلعاتهم وطموحاتهم كفتيانٍ وفتيات يعيشون ظروفاً استثنائيةً على جميع الأصعدة.

وفي سياق أكثرَ عمقاً في العملِ مع الشباب، فقد كان التركيزُ على خلق مجموعةً من الكتّاب والكاتباتِ اليافعينَ واليافعات في قطاع غزة، تكونَ مرجعيَّتُهم أبناءُ بيئتِهم الذين يشاركونَهُم الظروفَ والمعاناةَ والاهتمامات والأحلامَ، خصوصاً لما يفتقرُهُ القطاعُ من كتّاب لليافعينَ يمتلكونَ الأدواتَ الإبداعية، وبذلك يكونون أقدرَ على التعبير عن هذه الفئة وعن كل ما يَمَسُّها. تم العملُ مع مجموعة مكونة من اثني عشر كاتباً وكاتبة من الشباب والشابات على تقنيات الكتابة لليافعين، اشتملَ على مجموعة من العناوين الرئيسيةَ مثل تحليلِ نماذج من أدب اليافعين المحلية والعالمية، فن الرواية والقصة والشعر وتقنياتها، وخصائص الفئة العمرية لليافعين. وتم تكثيفُ اللقاءات في الكتابة العملية استمدّت عناوينَهَا وموضوعاتها مما تم مناقشتهُ بين الفتيان والفتيات أثناءَ مجاورتهم الأدبية، حيث اختيرت هذه الموضوعاتُ لتكونَ العناوينَ الرئيسيةَ والمكوِّنَ الأساسيَّ لكتاباتِ الشباب والشابات،

والتي تم العملُ على تطوير أفكارها الأدبية ورفع مستواها الفني. تواصلت اللقاءاتُ مع الكتَّاب والكاتبات لمدة أربعة أشهر تم العملُ فيها على قراءةَ النصوص والأعمالِ الأدبية من خلال مناقشةً عملية تطورها، والمشاكلَ العمليةِ الكتابية، لتصبحَ عملاً أدبياً لليافعين صالحاً للنشر.

ولدعم الجهودِ الشابة وتوثيقها، أنتجَ الكتّابُ والكاتباتُ ثمانيةَ أعمال أدبية تنوعتَ بينَ الرواية والقصةَ القصيرةِ الموجهة لليافعين. تم تقييمُ هذهِ الأعمال من خلال لجنة ضمت خمسةً من كتّاب محليينَ وممثلينَ عن مؤسسة تامر، واختيرت ثلاثةُ أعمالٍ باعتبارِها الأفضلَ بينَ ما تم تقديمهُ ليتمَّ العملُ على إنتاجها وطباعتها ومنَّ ثم توزيعها لتعميم التجربة، وبالنتيجة كان هذا الكتابُ أحدَ الكتبِ الثلاثة الأولى لهؤلاء الكتّابِ والكاتبات.

تتقدمُ مؤسسةُ تامر بالشكرِ الجزيل لكلٍّ من أسهم في إنجاح هذا المشروع وإصدارِ هذا الكتاب، وتخصُّ بالذكرِ الصندوقَ العربيَّ للثقافة والفنونَ لرعايته ودعمه المتواصل للمجتمع الفلسطيني، والشبابَ والشابات المشاركين في «أيامَ أدبيةَ»، والأستاذين عاطف أبو سيف ومحمود شقير على قيامهما بمتابعةِ العملِ معهم على هذهِ الكتب.

مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، ٢٠٠٩

شيء من نور



١
ذكريات.. كأنها البارحة

بدأت أحب الحياة منذ عرفت أن النور الحقيقي يشع من داخل قلوبنا، وأن بياض الحياة وجمالها لا يعني أن تملك وجهاً ملائكياً، بل أن تمتلك قلباً دافئاً وروحاً صافية، وأن تصنع من نفسك إنساناً يعرف قيمة نفسه ويدرك قيمة الآخرين، يساعدهم في حل مشكلاتهم، ولا ينسى أنه إن لم يكن بحاجة الآخرين، فهم حتماً بحاجة إلى كلمة دافئة.

بدأ هذا الإدراك الجميل لمعنى الحياة يساورني أكثر فأكثر، وأنا استمع للسيدة العظيمة فيروز وهي تغني «خلينا نهرب ونطير مع هالورق الطاير، ت نكبر بعد بكير شو صاير شو صاير..». فما أجمل أن تحيا بجسد ناضج وقلب طفل، وأن تثق بأن الله يخبئ لك الكثير من السعادة مقابل القليل من الصبر. تململت في مقعدي الخلفي، وأنا أطل من نافذة سيارة التاكسي وأشير للسائق «هنا لو سمحت».

سكون يملأ المكان، سكون لا نهاية له ولا يقطعه سوى أزيز المروحة برأسها الفضي الكبير وهي تدور ببطء شديد. تجلس السيدة منيرة، أمينة المكتبة، خلف المكتب الخشبي، تطأطئ رأسها، تقلب الأوراق وتضرب بختمها البنفسجي على الكتب تارة، و تستعرض بنظراتها الثاقبة الحاضرين تارة أخرى، كأنها تحذرهم من الهمس، والابتسامة لا تفارق محياها الصغير.

سرت بين الأرفف الخشبية والسيدة منيرة تتابعني بعينيها. وقفت أمام دواوين الشعر، أحب الشعر لأجل أبي رحمه الله، كان يكتب الشعر ويسمح لي بقراءة شيء

منه، يسألني عن انطباعاتي حول ما يكتبه، فأرسم ابتسامة على وجهي تكشف عن معظم أسناني، وأهتف «والله بيجنن»، بدأت بتصفح ديوان «كزهر اللوز أو أبعد» وأنا مبهورة بما جاء فيه، أحمل ثلاثة كتب وأقول للسيدة منيرة:

- «سأستعير هذه الكتب لو سمحت».

تضرب بختمها في مكانه المخصص: «تفضلي وخلينا نشوفك».

شكرتها و أسرعت باتجاه ناصية الشارع، لأستقل سيارة قبل أن يأخذ المطر في الهطول، وما إن وضعت قدمي داخل السيارة حتى بدأ المطر يهطل حقاً.

* * *

اسمي حـلا، حـلا نور الدين، أطلقت عليّ ماما اسم «حلا» في حين رغب والدي بتسميتي «ليلى» وهو اسم جدتي، أخيراً كان رأي ماما هو الراجح، وأنا سعيدة بذلك حقاً لأنني مولعة باسمي.. حلا! يااااااااه.

لم أكن أملك صديقاً مخلصاً أكثر من دفتري القرمزي ذي الغلاف الناعم، فيه أجد متنفساً لمشاعري وكتماناً لأسراري التي لا قدرة لي على البوح بها لأحد غيره. بمعنىً آخر، لن أجد شخصاً يفهمني كما دفتري، فهو لا يلومني كما تفعل ماما، ولا ينظر بعين الغرابة إلى هواياتي وأفكاري كما يفعل أقراني، وهذا بالفعل أمر عظيم، بل شديد العظمة.

معظم زميلاتي يستغربن فكرة أن أقوم بكتابة مذكراتي. عندما تسخر مني إحدى الفتيات أجيب «أظن أن ذلك أفضل من أن أضيع وقتي في كتابة الكلمات المزخرفة للفتيات، وخير من أن أحفظ عبارة واحدة أكتبها في النوتة لكل واحدة منهن: «تذكريني فإن الذكرى ناقوس يدق في عالم النسيان!» أففففف كم أمقت هذه العبارة!

شيء واحد فقط يميزني حقاً عمن هن في مثل سني، ويجعلني أشعر بالحزن والنقصان، تلك «الندبة» المستقرة على خدي الأيسر بكل برود، تلك الندبة التي

كنت أراها تكبر كل يوم أنظر فيه إلى وجهي في المرآة، إلى أن تصبح مسخاً عملاقاً، لتبتلعني كي أرقد في أحشائها كفأر ميت! لا أريد هذه النهاية، لا أريد لهذا التصور أن يكبر، ليصبح حقيقة لا أطيق التعايش معها ولو للحظة واحدة.

تعلمت عزف البيانو مع خالي «عمر» الذي استشهد هو ووالدي حينما كنت في الحادية عشرة، علمني خالي العديد من الأناشيد التي أتقنتها، لكنني ماعدت أذكر شيئاً منها سوى موسيقى «ذهب الليل طلع الفجر والعصفور صو صو، شاف القطة قالْ لها بس بس قالت له نونو..».

بت أدرك كم هو قاسٍ أن تفقد شخصاً تحبه من كل قلبك، وتجد نفسك في حاجة إلى التكلم معه أو الإمساك بكفيه ودعكهما، وما أجمل أن ترتمي في حضنه كلما اشتقت للشعور بالدفء، أرأيتم؟ هذا سبب إضافي لجعلي أعشق دفتري الحبيب.

تعود بي الذاكرة مجدداً إلى ندبتي، ندبتي التي لا أرغب في أن أتذكرها، وفي الوقت نفسه لا أستطيع تجاهلها، أنا واثقة من أنني سأتمكن من تجاهلها يوماً ما، كنت أعلم بأنني سأتوقف يوماً عن الحديث بشأن هذه الندبة الغبية، تماماً كما أخبرتني ماما من قبل، سأعود تلك الحلا الحلوة من جديد، لربما اليوم، أو غداً أو بعد غد، من يعلم! المهم أنه سيأتي اليوم الذي أنظر فيه إلى وجهي في المرآة، فأرى اختلافاً كلياً عما أراه عادةً في كل نظرة أختلسها لوجهي.

عندما كنا صغاراً، أخبرتني صديقتي ياسمينة بأن العيب لربما كان في المرآة التي أستخدمها وليس في وجهي أنا! أسرعت إلى غرفة ماما لأرى إن كانت ياسمين محقة في قولها، فوجدت أن شيئاً لم يتغير، عدت خائبة الظن غاضبة من ياسمينة أؤنبها بصوت مرتفع: «يبدو أن العيب في نظارتيك يا ست ياسمينة وليس في مرآتي!». بكت «ياسمينة» كثيراً يومها، لكنني اعتذرت منها واستطعت استرضاءها بقطعة شوكولا صغيرة.

الكوابيس أمر اعتيادي في حياتي. عندما أخبرت أمي بأمرها شعرت بأنها تقلق علي كثيراً، قررت عدم ذكر الموضوع في حضورها، واكتفيت بالصلاة وقراءة القرآن قبل النوم في كل ليلة. وكثيراً ما كان يراودني الكابوس نفسه حتى ظننت أنه حقيقة. كنت أحلم بأنني في مكان يختلف اختلافاً كلياً عن المخيم الذي انتقلنا للعيش فيه، أقف أمام ظل رجل يأخذ بالاقتراب مني، وتنحسر هالة الظل الأسود لتنكشف معالم وجهه بعض الشيء، تتسارع خفقات قلبي بطريقة جنونية، لكنه فجأة يبتعد مشمئزاً وهو يحملق في وجهي، فأخفيه بين كفيّ وأركض بلا هدف. كنت حينما أستيقظ فزعة، أدفن رأسي في الوسادة وأبكي، أكف عن البكاء وأنا أتذكر أنه مجرد كابوس.

لم تكن ندبتي أو كوابيسي هي كل همي في هذه الدنيا، الغريب أنني وبالرغم من صغر سني، كنت أشعر بأنني أحمل هموماً لاحصرلها وكأنني في الستين!

كانت حياتي في ذلك المخيم عسيرة، أشعر دوماً بأنني غريبة عنه. كنا انتقلنا للعيش في بيت عمي الواقع في أحد أزقة مخيم الشاطئ بعد استشهاد والدي مباشرة، انزعجت من ضيق المنزل في أول الأمر، ثم اعتدته كما اعتدت رؤية «هيفاء» بأعوامها الخمسة عشر وشقيقها «يوسف» الذي يكبرها بعامين، بملامحهما الباردة ووجهيهما، بتعابيرهما الصبيانية. لم أعرف لماذا كل هذا الغرور! كان البيت يذكرني بعلبة كبريت مصري ذات الحجم الكبير! بدا سقفه الإسبست مهترئاً إلى حد أنك تشعر بأنه سيسقط عليك في أية لحظة، وأنت تسمع طقطقته حين تلامسه الرياح الخفيفة، ناهيك عن «مزاريب» المياه والسيول الصغيرة المنسابة داخل البيت جراء المطر. تقتلعني قطرات المطر من «عز نومي» وهي تقرقع تيك تيك تيك توك توك توك! لم يكن عمي «أبو يوسف» رجلاً فقيراً، لكنه لم يكن يرغب في شراء منزل جديد، أو حتى عمل تصليحات لمنزله الحالي. لست أدري السبب تحديداً، زوجته الخالة أم يوسف تشبهه إلى حد كبير، إلا أنها لم تكن مبالية بشيء مما يجري حولها، ولا يعنيها سوى الظفر بعريس «لقطة» لابنتها

المدللة هيفاء. آه نسيت، هناك أمر آخر مهم، هو أن عمي المسكين كان يخشى خالتو «أم يوسف» كثيراً، كأنها وحش يتربص به في كل وقت.

كان رأسي مثقلاً بتلك الأفكار وغيرها، وأنا أهبط من السيارة والمطر يلاحقني بلا هوادة. تذكرت منزلنا القديم في وسط المدينة، والحديقة الصغيرة حيث أشجار القرنفل والريحان تملأ المكان، وأبي الذي كان يجلس دوماً في وسطها، يضع نظارته الطبية على عينيه، يقلب صفحات أحد الكتب، يتبسم بوجهه البشوش وهو يرتشف آخر قطرة في فنجان قهوته.

دلفت إلى البيت وأنا أجفف حذائي عند الباب. أنظر حولي بحذر ولا ألمح أي أثر لهيفاء أو يوسف، وأحمد الله على ذلك لأنني لا أرغب في تعكير صفو يومي. أسرعت نحو الغرفة التي أتشاركها مع أمي، وجدتها غارقة في النوم وقد انحسر الغطاء عن جسدها الصغير، فأسرعت ألفها به بحذر، ثم بدأت في خلع ثيابي ووضعها بالقرب من النافذة كي تجف، وأنا أنظر إلى تفاصيل الغرفة من حولي بجدرانها البيضاء الباهتة، حيث يقل الطلاء في بعض المناطق ويزداد في غيرها، كانت الخزانة المكونة من ضلفة واحدة قد تآكلت نوعاً ما. أنزعج وأنا أنصت لصرير بابها الكفيل بإيقاظ نصف أهل الحي.

تتابعت نظراتي حتى توقفت عند تلك المرآة الصغيرة المعلقة خلف الباب، كانت تلك المرآة كغيرها تماماً، كلما نظرت إلى انعكاس صورتي فيها أجد صورة شابة جميلة، هادئة متوسطة الطول، نحيفة، بشرتها بيضاء نوعاً ما، عيناها داكنتان متوسطتا الاتساع، تمتلك شعراً حريرياً داكناً يصل حتى خاصرتها، بالفعل يبدو شعري جذاباً، بل ساحراً.

كان خالي رحمه الله دائم الحديث عن جمالي وعن جمال شعري بالذات، ويقول لي دوماً بخفة: "ليتني كنت فتاةً يا حلا أمتلك شعراً حريرياً كشعرك"، ويضيف: "حينما تكبرين ستدركين كم تكون جاذبيته أقوى و هو طليق!"، لم أفهم ما كان

يعنيه خالي بكلماته الأخيرة، ولا يهمني أن أفهمها، كل ما يهمني الآن هو أنني أمتلك شعراً جذاباً، وهذا يكفيني، ثم أضحك كثيراً و أنا أتخيل خالي عمر كفتاة بشعر طويل!

عندما أتذكر ذلك اليوم أشعر بألم كبير، ولو يعلم الإنسان مايخبىء له القدر، لكي يستعد لذلك، لما كنا الآن على هذه الحال! لم أعرف يومها على من أبكي تحديداً، على والدي! خالي! أم نفسي! لا أذكر شيئاً من تلك الحادثة المروعة سوى وجه خالي العذب ذي الثمانية والعشرين ربيعاً، وهو يتناول الشاي بالنعناع مع والدي في حديقة المنزل، وأنا ألعب الحجلة وحيدةً كالبلهاء أمامهما، وأقفز متباهية بقبعتي الجديدة. رأيتهما ينتفضان فجأة، يصرخان بألفاظ غير مفهومة وأنا أقف محملقة لا أدري ما الذي يجري حولي، ولم أنتبه سوى لأزيز طائرة مروحية، يليه صوت انفجار عنيف مزق المكان ومن فيه.

أفقت بعدها بساعات أو أيام، لست أدري تحديداً، لأجد نفسي ملقاة على سرير حديدي صلب، تفوح منه رائحة المخدر والدماء، وظلال بيضاء وخضراء عديدة تسير أمامي مسرعة! نحيب أمي المختلط بأنينها، كان يخترق قلبي وأنا أرمقها بفستان نومها الأزرق المزركش، وشعرها المنكوش المغبر.

كنت أشعر بألم شديد في كل خلية في جسدي، أتقلب فوق السرير القاسي وأتنفس الهواء المليء بالمخدر، شعرت بأن وجهي قطعة جمر تزداد احمراراً كلما لفحها الهواء، كانت الندبة تؤلمني بشدة، كنت أتطلع حولي أبحث عن شخص ما يساعدني في تخفيف الألم، ولكن دون جدوى، كانت أمي تواصل نحيبها وأنا لا أعلم السبب. كم رغبت في أن أطلب منها التربيت على وجنتي بكفها الناعم الدافئ، لكنني كنت أشعر بالخجل والحزن من رغبتي كلما نظرت في وجهها الشاحب وشعرها المغبر المنكوش.

حتى ذلك الحين، لم أكن اعرف بعد أنني أصبت بندبة ظننتها خدشاً أو حرقاً بسيطاً سيولي عما قريب، ولم أكن أعلم بأنني فقدت أبي وخالي، وعندما لم أجد جدوى من الحملقة هنا وهناك، بدأت في البكاء دون وعي. شعرت بأن الألم بدأ ينتشر بسرعة هائلة في وجهي وأطرافي، كانت وجنتي ساخنة، تذكرت وأنا أتحسسها إبرة التيتانوس المؤلمة التي تلقيتها في أعلى ذراعي وأنا في المرحلة الإعدادية، هي الأخرى آلمتني، وشعرت بأن وخزتها حارقة وساخنة جداً، وبالرغم من ذلك لم أشعر بألمي يشتد كما الآن، لم يكن شعوري مماثلاً وأنا أحاول لمس الجرح الجاثم على وجنتي، فكلما قربت كفي منه شعرت بالألم يشتد ويشتد.

قدمت إحدى الممرضات على نحيبي وهي معقودة الحاجبين تصرخ:

- كفي عن البكاء كالأطفال، واحمدي الله أنك ما زلت على قيد الحياة! أنت حتى لم تصابي بأي أذى!

تجمدت في فراشي محملقة وأنا لا أجرؤ حتى على التنفس أمام الممرضة الغاضبة، اقتربت ممرضة أخرى قصيرة القامة ممتلئة الجسد بعض الشيء:

- هدئي من روعك يا هدى ولاتصبي غضبك على الفتاة المسكينة،

she has no idea about what's going to happen with her face, it's not fair!

"طيب" أجابت وهي تبتعد، ثم تتوقف لحظة لتحدق بي وفي عينيها نظرة حزينة.

- ما بك ياحلوة هل تتألمين؟

قالت الممرضة الأخرى برقة وبلكنة بدت مختلفة نوعاً ما.

- نعم، كثيراً.

قلت وأنا أحاول كبح جماح دموعي المنطلقة.

- لا تخافي، سيزول الألم سريعاً بعدما أحقنك بهذا الدواء، ستشعرين بتحسن كبير، هيا الآن. قالت وهي تزيل الغطاء الأبيض المائل للصفرة عن خاصرتي:

- استديري، نعم هكذا على بطنك، لن تتألمي، فقط وخزة خفيفة.

شعرت بالخجل يومها، وأنا أكشف عن طرف وركي للممرضة كي تقوم بحقني، ولم ألحظ يدها البيضاء الصغيرة وهي تغلق ستارة بلاستيكية لئلا يراني أحد.

سألت الممرضة في ذلك اليوم عن الجرح، فأخبرتني بأن الطبيب يتوقع زواله في غضون أيام. وباتت الأيام أسابيع والأسابيع أشهراً، وهكذا دواليك حتى يومنا هذا.

ومنذ ذلك اليوم، وأنا أعيش حياة مختلفة تماماً عما في السابق، أعيش بحاضر مختلف ومستقبل مختلف وبوجهٍ شديد الاختلاف، وهاهي خمس سنواتٍ تمر وأنا ما زلت في انتظار أن يصبح توقع الطبيب حقيقة.

كلما نظرت إلى نفسي في المرآة أكثر، كرهتها وأحببتها في آن واحد! كنت أكتشف في وجهي عوالم جديدة لم أعرفها قبلاً. أبدو جذابة حقاً، لكن ذلك البريق الحزين يرفض مغادرة مقلتي ولو للحظة، ياه كم تغيرت! لم أكن أشعر برغبة في البكاء، وبالرغم من ذلك بكيت بحرقة. رفعت رأسي لبرهة، وأخذت في تحريكه حركات سريعة متتالية، كأنني أنفض عنه الغبار، وبدأت أجفف دموعي متظاهرة بالابتسام للمرآة، أحملق في ثنايا جسدي الثائر، جسد أنثى مقبلة على الانفجار! عبثت بخصلات شعري، ألصقتها بخدي الأيسر لإخفاء الندبة. حملقت في الصورة، كأنها لفتاة لا أعرفها لكنني بت أحبها وأعتادها.

الأجمل من هذا كله، أنه أصبحت هناك علامة واضحة غير قابلة لأي جدال، تشير إلى أنني بت ناضجة تماماً كما أمي وبقية النساء في حينا، حينما ركزت بصري على ذلك البروز الذي كنت أخجل به، تذكرت، لا أعرف لماذا، يوسف ابن عمي وفظاظته.

أذكر ذات مرة، بعد قرابة سنة من انتقالنا للعيش في المخيم، أنني خرجت للتنزه مع رفيقتي "ياسمينة" وأشقائها وأولاد عمي "يوسف" و "هيفاء" على عتبات الحارة، فشاهدنا مجموعة نساء يرتدين عباءات مزركشة، تزينها فصوص براقة، ويضعن الكثير من المساحيق وتفوح منهن رائحة عطر قوي متشابهة. تبعنا لهن وتابعنا السير دونما تعليق مكتفين بتبادل بعض النظرات التي فهمناها جيداً فيما بيننا، إلا "يوسف" الذي واصل التحديق فيهن بعينين باتساع السماء، متابعاً خطواتهن المتعرجة معلقاً:

- يا الله.. انظروا كيف يتحركن مثل قوالب الجلي اللذيذة التي تصنعها أمك يا حلا!

كثيراً ما كنت أختلف ويوسف، حيث كان كل منا يحاول الاستئثار برئاسة المجموعة، ويا لبراءة هؤلاء الصغار، يقف كل منهم مثل "الأطرش بالزفة" و نحن نتشاجر بشأنهم.

في اليوم ذاته من تلك السنة، كانت أمي قد طلبت مني تجريب الفستان الذي خاطته لي الخالة أم محمد، ارتديته على عجل وقلبي يخفق فرحاً، وقد بدأت بالدوران حول نفسي في حركات سريعة متتالية، أردد مع جهاز التسجيل "كان عنا طاحون ع نبع المي، قدامه ساحات مزروعة في، وجدي كان يطحن للحي قمح وسهريات، ويبقوا الناس بهالساحات.. شي معهن كياس شي عربيات، رايحين جايين وعطول الطريق تهدر غنيات".

ألف شريطاً حريرياً أحمر حول شعري، تاركة بضع خصلات تتدلى لتخفي شيئاً من خدي الأيسر، هكذا أحب أن أكون أو لربما هكذا وجدت نفسي، فقبلتها.

لم أشعر بيوسف الذي تسلل إلى الغرفة، وبدأ يراقبني وأنا أتصرف كالأطفال وهم يتراقصون سعداء بأثواب العيد الجديدة، كان شعري الطليق المنسدل يبدو

كأنه يطير في الهواء ويهرول خلفي، محاولاً اللحاق بي دون جدوى. كنت سعيدة حقاً وأنا أشعر بأنني أطير والعالم كله يقف من حولي مذهولاً لشدة جمالي. جعلني ذلك الدوران أبدو سعيدة أكثر من ذي قبل بمائة مرة، لدرجة أنني نسيت نفسي، ثم تنبهت إلى نظرات يوسف الناعسة المركزة على صدري الذي لم يكتمل نضجه. كانت نظراته تنتقل في كل شبر من الغرفة، ثم تعود إلى حيث كانت مركزة عليّ.

اعترتني رجفة خفيفة، فتوقفت فوراً ناظرة إليه واضعة ذراعي حول خاصرتي، وصحت فيه:

- هيييي يوسف! ما بك؟

حملق بي كأنني أيقظته من شرود دام وقتاً طويلاً، وبدا مشوش الذهن:

- ها؟.. لا.. لاشيء حلا خاطبني متلعثماً.

- يوسف أترغب بالرقص؟ إنه شعور رائع .. أترغب؟.

أومأ بالإيجاب، واقترب مني بهدوء. اندفعت أمسك بكفيه الناعمتين ككفي أنثى، كانت أصابعه باردة متصلبة، بدأنا الهرولة تدريجياً في دائرة، ونحن نشبك أيدينا بطريقة متقاطعة كعلامة «X» إكس. كنا نرقص ككتلة واحدة ونضحك ضحكات طفولية متقطعة، يصاحبها هذيان آلة التسجيل خاصتي. توقفنا فجأة بعد أن أجهدتنا تلك الفرحة الغامرة، ونحن نلهث ونتبسم لبعضنا بعضاً. كانت عقدة شريطي الحريري قد بدأت ترتخي شيئاً فشيئاً، وتنبهت إلى التصاق بضع خصلات من شعري المتعرق بجبهتي ورقبتي، أسرعت وسويتها لأخفي خدي مجدداً. لمحت يوسف يقترب مني مشدود الأعصاب، محاولاً إظهار شيء من الاهتمام بشريطي الحريري الذي بدأ يرتخي من جديد، تراجعت للخلف خطوة أو اثنتين، وهو لايزال يقترب واضعاً كفه المتعرقة على رأسي، وبدأت أشعر بالتوتر



ينتشر في كل خلية من جسدي، انحنى وهو يمط شفتيه الغليظتين نوعاً ما محاولاً تقبيل خدي المتورد، تراجع فجأة كأنه عدل عن فكرته وهو معقود الحاجبين، يحملق في ندبتي، كما لو أنه يراها للمرة الأولى، متمتماً بصوت خفيض "يالله!" اعتدل تدريجياً وقد بدا مكتئباً نوعاً ما وهو يتراجع للخلف!

كم تمنيت لو أكمل يوسف ما بدأ به وطبع قبلته الصغيرة على خدي! شعرت بخجل كبير وأنا أمسح بكفي على ندبتي، ومن ثم أغطيها بخصلات شعري المتعرقة. أحسست للحظة أن حجم الندبة تضاعف حتى غمر وجهي بأكمله.

ركض خارجاً من الغرفة كأنه يفر من وباء معدٍ، بينما اكتفيت أنا بدفع جسدي إلى الكرسي الخشبي الوحيد في الغرفة. دفنت رأسي بين كفي وأجهشت ببكاء مرير، زاده مرارة صمت المذياع القاتل. كنت أعلم منذ كنا صغاراً، بأن عمي أبو يوسف يرغب في أن يتخذني عروساً لابنه، للحفاظ على لحمة العائلة، إضافة إلى جمالي الشديد الذي لايمكن تجاهله على حد قول أفراد العائلة. تغير كل ذلك في لمح البصر، لم يعد يوسف ذلك الفتى الذي يصارع كل أولاد الحارة لأجلي، أو حتى يهتم بشراء قطعة حلوى إضافية لي، غير آبه ببكاء هيفاء المتواصل.

أيقظني صوت أمي الناعس من سيل أفكاري المتلاحقة:

- حلا لِمَ أنت مبللة إلى هذا الحد؟ أكنت بالخارج؟. التفت أجيبها وشفتاي ترتعشان من شدة البرد:

- كنت في المكتبة، أحضرت بعض الكتب.

قاطعتني بانزعاج:

- حلا.. كم مرة علي أن أخبرك بأن تتوقفي عن هذا؟ لا أعرف ما الذي سنجنيه من مشاويرك الدائمة إلى المكتبة غير تبذير المزيد من الوقت والنقود.

هتفت بصوت متقطع:

- ماما صدقيني، ذهابي للمكتبة ليس تبذيراً للمال ولا حتى تضييعاً للوقت، أريد أن أكون مختلفة بشكل إيجابي، ولن تشغلني هذه الكتب عن كتبي المدرسية، أنا أعدك بأنني سأكون دوماً متفوقة في دروسي، أتعلمين كل المعلمات في المدرسة يخبرنني بأنني مميزة جداً عن بقية الفتيات، وأنني أتمتع بمواهب لاتستطيع زميلاتي امتلاكها.

أجابت أمي بانفعال وهي تعتدل جالسة في الفراش:

- افهميني يا حلا، كل ما أريده منك هو التركيز على دروسك وشهادتك، أنت الآن في المرحلة الثانوية وعليك إظهار اهتمام أكبر بكتبك المدرسية فقط. يمكنك تأجيل هذا كله إلى العطلة!

أعرف بأن ماما ليست من النوع الذي يقتنع بسهولة بأي شيء، لذا تركتها تؤنبني لنصف ساعة كاملة، وأنا أهز برأسي كعلامة موافقة مني على كل حرف تقوله، وأنا لا أعي سوى حركة شفتيها السريعة، ولا أفهم أو أسمع شيئاً مما تقول.

كل ما كان يجول بخاطري هو كلام السيدة أم وسام التي التقيتها في المكتبة منذ يومين، شعرت بشيء من الخوف وأنا أفكر بردة فعل أمي حيال قيامي بإعطاء دروس تقوية، خصوصاً وأنها تريد مني أن أتفرغ تماماً لدروسي وواجباتي المدرسية، بالنسبة إليَّ كانت هذه هي فرصتي كي أثبت نفسي لماما وعمي والجميع، كما سأتمكن من شراء كل ما أريد، سأوفر لماما دواء الضغط، وسأبتاع لها ثوباً جديداً من نقودي الخاصة، أما بالنسبة لي فسأكتفي بشراء بنطال جينز ومعطف جديد.

كم ستفرح أمي وأنا أقف أمامها أطلب منها أن تغمض عينيها كي لا ترى المفاجأة التي أحضرها لها، تغمض عينيها بلا تردد وأهتف فجأة "هيّا"، تفتح أمي عينيها وتتحسس الثوب المطرز المفرود على ركبتيها، وتشتم رائحة القماش المزوجة بالنفتلين، تغرورق عيناها بالدموع وتفتح ذراعيها لتحتضنني وتبكي.

٢
شيء ما بدأ يغيرني

استيقظت من نومي نشيطة على غير عادتي، أقفز من الفراش وأسير بخطوات واسعة نحو الحمام، فاليوم عطلة! نعم اليوم هو الجمعة، وأنا حقاً سعيدة بأنني لن أذهب إلى المدرسة، لكنني أشعر بقلق وخوف كبيرين وأنا أتذكر أن غداً هو السبت، مما يعني أن حصة الرياضيات ستكون الأولى وسأفتتح نهاري بالسين والصاد!

كانت عيناي منتفختين جراء نومي العميق وأنا أدفن رأسي في الوسادة.

و.. تذكرت حلمي الرائع، فرشقت القليل من الماء على وجهي، وأسرعت أبحث عن ماما لأخبرها عن حلمي الجميل، كانت تقف في المطبخ تحضر طعام الإفطار والخالة أم يوسف:

- صباح الخير..

هتفت السيدتان:

- "صباح النور".

كانت هيفاء تجلس إلى الطاولة، تطرق الأكواب والأطباق بملعقة شاي صغيرة، فيصدر عنها لحن موسيقي غريب، وترمقني بشيء من الغرابة. قلت:

- صباح الخير هيفاء، تبدين بحال أفضل اليوم.

أجابت هيفاء لا مبالية:

- "الحمد لله".

لا أعرف لماذا هتفت بتلك العبارة لهيفاء، رغم أنها لم تكن مريضة ليلة البارحة أو حتى قبلها!

قلت لأمي من جديد:

- ماما، حلمت الليلة حلماً رائعاً، ليته يتحقق.

- أها حقاً بمَ حلمت إذاً؟

- حلمت ب..

قاطعتني هيفاء بصوت حاد:

- مؤكد، حلمت بشقيقي يوسف.

احمرّ وجهي، وشعرت بانفعال وخجل شديدين، شعرت برغبة شديدة في لطمها، لولا تدخل الخالة أم يوسف وهي ترمي ابنتها بنظرات غاضبة.

دفعت هيفاء كرسيها إلى الوراء بقوة واتجهت خارجة نحو الباب، لم أحتمل أن تخرج هيفاء وتتركني في هذا الموقف المحرج، وتظلمني بادعائها السخيف، أجبت بصوت مرتفع:

- "لم أحلم بيوسف أو غيره، حلمت بأنني لم أعد امتلك هذه الندبة وأنها زالت إلى الأبد".

توقفت هيفاء للحظة كأنها تنصت لقولي ومن ثم اختفت هامسة:

- "حلم إبليس بالجنة..".

أظن أن أمي والخالة أم يوسف سمعتا قول هيفاء، لكنهما تظاهرتا بعكس ذلك كي تتجنبا مزيداً من التوتر بيننا. خرجت أم يوسف من المطبخ لتؤنب ابنتها،

حسب اعتقادي، بينما اكتفت أمي بالتربيت على ذراعي بخفة:

- لاعليك يا حلا، إنها لاتزال صغيرة، وندبتك ليست ظاهرة إلى هذا الحد، اجلسي لنتناول الإفطار معاً وحدثيني قليلاً.

وددت لو أنني أمتلك القدرة الكافية لإخبار أمي عن عرض السيدة أم وسام، لكنني ظننت الوقت غير ملائم لمناقشة هذا الموضوع.

- أمي، أنا اشعر بقلق كبير، كالغريبة في هذه الدنيا! بتّ أكره كل شيء حولي، والجميع يبادلونني هذا الشعور المخيف ،أشعر بأن هنالك عدة أشياء تنقصني.

ربتت أمي على كتفي بحنو:

- حلا! أنت تسيئين فهم الأشياء، صدقيني يا عزيزتي أنك من أكثر الفتيات ذكاء وجاذبية، ما ينقصك فقط هو شيء من الثقة، ثقي بأنك محبوبة ولديك شعبية كبيرة بين أهلك وأصدقائك، ألا يكفيك هذا؟

أجبت بكآبة:

- "بلى".

ابتسمت أمي، وأخذت تلوك الطعام بعينين باسمتين، وأنا أتأمل وجهها الصغير الجميل الذي يشبه لقيماتها، وأشعر بالأسى لأنها لن تتمكن من فهمي.

لم تكن أمي قادرة على فهم ما يجول في خاطري من مشاعر، ولربما كنت أنا السبب، إذ لم أكن صريحة معها بشكل كافٍ. ساعدت أمي في ترتيب المطبخ وغسل الأطباق ثم أسرعت إلى خزانتي، فتشت بين ثنايا ملابسي الداخلية، تحسست دفتري الحبيب بقفله النحاسي الصغير وتناولته مسرعة، تصفحته لأعثر على مساحة للكتابة وبدأت:

اليوم ٢٣/١٠/٢٠٠٧

الساعة: ١٠:٣٧ صباحاً

بسم الله الرحمن الرحيم

"حلمت الليلة بأروع ما قد يحدث لي في هذه الدنيا، حلمت بأنني أستيقظ من النوم لأنظر إلى وجهي في المرآة، فأراه أبيض ناصعاً ولا أثر للندبة، والجميع يقفون من حولي مبهورين ببهاء وجهي. كانت ناهد، تلك الفتاة في الصف المجاور، ترمقني بنظرات حادة والغيرة الشديدة بادية على وجهها، كم أمقتها هذه ال"ناهد"! تشتمني دائماً وتهينني أمام الفتيات، أكرهها لأنها تناديني ب"المشوهة"، تُبكيني كل يوم حين تنظر إليّ بسخرية، وتتهامس وصديقاتها وهن يشرن نحوي، لذا شعرت بفرحة غامرة وأنا ألمح نظراتها في الحلم، وتمنيت لو أن هذا حقيقي.

أريد التخلص من هذه الندبة، لأنني أرغب بان أكون جذابة في أعين الناس وبخاصة الشباب، أشعر بحرج كبير وأنا أقول هذا لكنها الحقيقة، فأنا أحب نظرات الشباب إلى معالم جسدي ووجهي وشفتي. هذا ليس خطأ بالنسبة لي، لكنني متأكدة من أن ماما ستلومني إن بحت لها بهذا، أنا أصلاً لا أجرؤ على مناقشتها في مثل هذه الأمور التي أظنها محرجة نوعاً ما، مؤكد أنها ستظن أنني قليلة التهذيب، وأنني أستحق عقاباً قاسياً لوقاحتي.

الغريب أنني أحب أن أكون جذابة، وفي الوقت نفسه أخجل وأتعثر في مشيتي، حين ألاحظ أن نظرات أحدهم مسلطة علي، تتصاعد الدماء لتغرق وجهي وكفي، وأنا أتذكر منظر يوسف وشلته وهم يحملقون بي وأنا عائدة من المدرسة. يوسف وشلته يقفون دائماً بباب مدرستنا فقط لمعاكسة الفتيات واللحاق بهن ليتباهى كل منهم أمام الآخرين بقصص خيالية لا علاقة لها بالواقع. أعرف لماذا يغرم هو وأصدقاؤه بمارلين مونرو ومثيلاتها المثيرات! وأعرف أنه حرم نفسه مؤخراً من المصروف لأسبوع كامل، كي يتمكن من شراء ذلك الملصق الكبير المعلق في

غرفته لمونرو وهي نصف عارية.

كلما تذكرت ما جرى بيني وبين يوسف قبل سنوات، شعرت بخيبة أمل عارمة وبأنني أمقت كل الفتيان. كنت أعتقد أنني بالنسبة لهم مخلوق بشع لا يستحق سوى الاشمئزاز والشفقة. شاب واحد استطاع كسر القاعدة، لست أعرف اسمه أو أي شيء عنه، كنت ألمحه مصادفة وأنا ذاهبة إلى المدرسة في الصباح الباكر، يجلس في سيارة سوداء من نوع جيب إلى جوار رجل في منتصف الأربعينيات. لم أتمكن من التمعن في ملامحه عن قرب. استطعت في إحدى المرات تمييز شعره الفاحم ووجهه الطويل المائل للسمرة نوعاً ما، حيث تنمو شعيرات داكنة أسفل ذقنه. بدا واثقاً جداً بنفسه وهو يلاحقني بنظرات ثاقبة، وأنا أعبر الشارع من أمام السيارة الفارهة، قبل أن يتغير لون الإشارة إلى الأخضر، خفق قلبي بشدة وتعثرت، فالتفت مسرعة لأرى إن كان لا يزال ينظر باتجاهي، كان قد أشاح بوجهه إلى الخلف، كأنه يُحَدِّث شخصاً جالساً في المقعد الخلفي.

منذ ذلك الحين، وصورة ذلك الشاب لا تفارق مخيلتي. هنالك شيء ما يحدث لي، ليقلب كل شيء في حياتي رأساً على عقب.

يتبع..

--- ١١:٠٢

مضت عدة ساعات وانتصف النهار. وكان عليّ أن أتحدث مع أمي بشأن عرض السيدة أم وسام.

كانت أمي منشغلة مع جارتنا الخياطة أم محمد، بشأن بعض الملابس القديمة التي ترغب في إعادة اصلاحها، تأففت لأنني أرغب في سماع رأيها، ولم أعد قادرة على الانتظار فترة أخرى، وأنا أتآكل من الخوف والقلق.

صعدت إلى السطح ريثما تنتهي أمي من أم محمد، وانتهزت الفرصة بتأمل

المخيم من هذا العلو، كنت أضع منديلاً صغيراً على رأسي، كي لا أعرض نفسي لتدخلات يوسف وأوامره البلهاء، فهو ينتظر أن أرتكب أي خطأ كي «يفرد عضلاته»، ويتصرف معي كأنه مسؤول عني.

وقفت تحت السماء الرمادية، أسترق النظر إلى الشارع الساكن، بدا كأنه شارع يتوسط لوحة زيتية قديمة أغرقها الغبار، الحوانيت، الأبنية الرمادية بسقوفها المهترئة، أعشاش الدجاج والحمام تعتلي أسطح معظم البيوت، الأزقة الموحلة بدت كأنها أنهار داكنة، أصوات أولاد الجيران يصرخون ويقتتلون لأجل طابة نصف منتفخة، بسطات الخضار والملابس الداخلية بألوانها الحمراء والصفراء الفاقعة، أشكال المارة على اختلاف أعمارهم وأشكالهم. يمكنك بكل سهولة أن تميز أبناء المخيم عن غيرهم من الناس، أخجل أحياناً عندما تسألني إحدى الفتيات في المدرسة عن بيتي، أخجل أن أخبرها بأنني أقطن المخيم، وكنت أوصي ياسمينة دوماً بأن تكون حذرة أمام الفتيات، وألا تخبرهن عن مكان إقامتنا الجديد هنا، حينما علمت أمي بالأمر غضبت مني كثيراً، لأنني أخجل بأهلي وحياتي، على الرغم من أنها تعلم أن حياتي انتهت بانتهاء ذلك البيت الدافئ بكل ما كان فيه من ذكريات.

في حالات المطر الشديد أعود برفقة ياسمينة وفتاتين من الصف المجاور بسيارة أجرة تمر بنا عبر شوارع المخيم، فتبدأ الفتاتان بالتأفف من رائحة الشوارع العفنة، أشيح بوجهي بعيداً كي لا تلحظ الفتاتان توتري، وأصر على أسناني متمتمة «يا للمصيبة!».

ها هو ذا عادل ابن الخضرجي يبدو كأنه كيانو ريفز بطل فيلم ماتريكس، ببذلته السوداء المكوية وقميصه الأسود! عادل أنيق دوماً يحب ارتداء البذلات والملابس المكوية جيداً، لدرجة أنك تلمح ثنية الكي على ملابسه من مسافة لا بأس بها، لربما هو كذلك، لأنه يشتغل في القانون وعليه الظهور بمظهر لائق أمام زبائنه



وزملائه في العمل. كنت أتباهي بعادل وبعض شباب المخيم أمام زميلاتي في المدرسة، لأثبت لهن أن أبناء المخيم ليسوا أقل رقياً من شباب المدينة، بل إنهم في كثير من الأحيان أكثر من هؤلاء جمالاً وأوفر علماً وثقافة. تابعت عادل بنظراتي حتى اختفى بين الناس المتجمهرين أمام محل الفلافل القريب.

يلفحني الهواء وأستشعره بارداً جافاً يتسلل إلى جسدي، أتحسس الندبة فأشعر بالبرودة تنتشر أكثر فأكثر، تك تك تك تك تك بدأ المطر يهطل مجدداً، أسرعت أخطو نحو السلالم قبل أن يبللني المطر، كانت أم محمد قد غادرت ووجدت أمي تجلس برفقة أم يوسف وهيفاء أمام التلفاز، بدأ قلبي يخفق وأنا استعد لمخاطبتها:

- ماما من بعد إذنك أريدك للحظات.

وخزت هيفاء ذراع أمها بقلم كان في يدها، وتبادلت الاثنتان نظرات الاستغراب من رغبتي في التحدث مع أمي على انفراد.

لم أكترث، سرت أتقدم ماما وهي تتبعني بتثاقل، عندما دلفت إلى الغرفة طلبت منها الجلوس والاستماع إليّ بتأن، قلت بتلعثم وقلبي يكاد يتفجر داخل صدري:

- مم ماما، الحقيقة أنني أود استئذانك في أمر مهم.

- «طيب» أجابت بهدوء.

- عرضت علي سيدة تدعى أم وسام التقيتها منذ مدة في المكتبة، وظيفة سهلة وممتعة في الوقت نفسه، «صمتُّ قليلاً أبتلع لعابي بصعوبة، وانتظر رد أمي التي بدا عليها انفعال كبير:

- وظيفة أي وظيفة هذه التي ستشغلها ابنة السادسة عشرة ؟ها؟

هتفت ملوحة:

- تمهلي، أرجوك لا تنفعلي، إنها ليست وظيفة بمعنى وظيفة، تريد مني السيدة إعطاء ابنتها في المرحلة الابتدائية دروس تقوية في اللغة الإنجليزية. أخبرتني بأنها لن تطالبني بالكثير، لأنها تعلم أنني طالبة ولا أملك متسعاً من الوقت. ستكون الدروس في منزلهم في حي النصر، ولن أبقى هناك أكثر من ساعتين، هذا إن كانت ظروفي سانحة. تعلمين جيداً أنني أعشق اللغة الإنجليزية، والتدريس هوايتي المفضلة.

- المسألة ليس أن تحبي ذلك أو تكرهيه، أنت تعرفين جيداً أنني لا أريد أن يشغلك أي شيء عن تحصيلك الدراسي، لست أعتقد أننا في حاجة لوظيفتك هذه، إن كان ذلك لأجل المال فأنا أدرك حاجتنا إليه، وقد تحدثت وأم محمد بالموضوع وقريباً سأعمل في المشغل الذي تعمل فيه مقابل أجرٍ جيد، وعندها سأوفر لك كل ما تحتاجينه. أجابتني ماما متنهدة بتعب.

أسرعت أمسك كفها:

- ماما، ليست حاجتي للمال هي سبب رغبتي في العمل، أنت لم تقصري في حقي أبداً، صدقيني يا أمي أنا أرغب في هذه الوظيفة لأنني أحببتها، ولأنني أريد إثبات نفسي.

خاطبتني ماما مترددة:

- ولكن أليس من الغريب أن تفضلك هذه السيدة عمن هم أكثر منك خبرة؟ لماذا لم تبحث عن أستاذ أو آنسة لتعليم ابنتها؟

- سألتها عن ذلك، وأخبرتني بأنها تريد شخصاً يمكنه تعديل سلوك الفتاة، بحيث يكون قدوة حسنة يمكنها التأثر به، كما أن بنات الجيران اللاتي يدرسن في مدرستي، أخبرنها عن شخصيتي اللطيفة وثقافتي الجيدة وحسن معاملتي لهن.

- لا أدري ما أقول! من الواجب استشارة عمك في الأمر، فهو الآن ولي أمرك وفي مقام المرحوم والدك، ولا أدري ما يكون رأيه. أنت في مرحلة عمرية حرجة.

غمرتني غيمة حزن.

أبدى عمي خوفه على سمعتي من كلام الناس، وخشيته من ظنهم أنه غير قادر على تلبية احتياجاتنا أنا ووالدتي. وبعد نقاش مطول استطعت إقناعه، وافق شريطة أن يرافقني يوسف من وإلى هناك، ووافقت على ذلك رغماً عني.

٣
حفلة الزفاف.. صدمة متوقعة

كالعادة كان يومي الدراسي سيئاً للغاية وبخاصة في حضور ناهد، لم أفهم شيئاً من الست نادية معلمة التكنولوجيا، فهي تقفز من صفحة لأخرى دون تركيز، تصفر صفيراً حين تتكلم و تتحرك بسرعة هائلة داخل الصف.

كنت شاردة الذهن طوال الحصة، أفكر في عرس أقربائنا الذي سنحضره اليوم، لا أرغب في الذهاب، لكن ماما تصر وتريدني أن أذهب معها هي والعائلة مهما كلف الأمر. أشعر بحرج لأنني واثقة أن كل من في العرس سيتركون العروس وشأنها، وسيلتفتون إليّ محملقين مشفقين.

خرجت من الصف لا أدري عما كان درس اليوم، وما زلت أفكر بندبتي و ملابسي التي حضرت بها مناسبات معظم الأقرباء، وقد بات موديلها قديماً نوعاً ما.

كنت قد أخبرت صديقتي ياسمينة بمخاوفي وعدم رغبتي في الذهاب إلى العرس بتلك الملابس، إضافة لندبتي التي باتت تخنقني كحبل المشنقة، أبدت ياسمينة استعداداً كاملاً لإعارتي أي شيء أرغب فيه من خزانتها لحضور الزفاف. اكتفيت باستعارة قميصها الأزرق النيلي ذي الشريط الحريري العريض حول الخصر، حيث كان يلائم بنطالي الجينز الذي ابتاعته لي أمي مؤخراً.

قررنا الذهاب لأقرب "بسطة" بجانب المدرسة، لشراء بعض الحلي زهيدة الثمن لأنها قد تفي بالغرض، وبينما كنت أقف هناك رفقة ياسمينة ألتقط

خاتماً من "البسطة" وأضعه في إصبعي، إذا بي ألمح ذلك الشاب يسير على الرصيف المقابل، و يحمل بين ذراعيه رزمة مجلدات و كتب، نظر باتجاهي فجأة فأشحت بوجهي حتى لا يراني وأنا أنتقي شيئاً من هناك، انتزعت الخاتم من إصبعي ورميته فوق كومة الأغراض أمام البائع، سحبت ياسمينة من ذراعها وصرخت: "هيا أسرعي". أسرعت و ياسمينة نخفي أجسادنا بين الطالبات المحتشدات أمام باب المدرسة، وحين اختفى الشاب بدأت أتنهد بعمق وبراحة كبيرة، وياسمينة تقف إلى جانبي ترمقني بغرابة، وتنتظر مني توضيحاً. وثبت سريعاً لأطل برأسي من خلف الفتيات، ولأنظر في اتجاه زاوية الشارع، لأتأكد من أن الشاب اختفى تماماً، وحين اطمأن قلبي التقطت كف ياسمينة أحثها على السير في اتجاه المخيم.

وصلت إلى البيت لاهثة، أحمد الله أن كل شيء مر بسلام، أقبض على كيس نايلون مقوى فيه الأغراض التي أعارتني إياها ياسمينة.

كانت هيفاء تجلس إلى طاولة خشبية صغيرة تنفخ على أصابعها صبية، لتجفف طلاء أظافرها الأحمر، وعلى يمينها كيس شفاف متوسط الحجم يعج بالإكسسوارات الفضية والملونة.

لمحت قلادة ذهبية رقيقة تزين عنقها الأسمر، ألقيت التحية دون تلقي أية إجابة، واتجهت إلى غرفتي حيث كانت ماما تقطب إبط فستاني المعهود.

- مساء الخير ماما، ماذا تفعلين؟. سألتها باستغراب.

- مساء النور، كما ترين أحاول تقطيب التمزيق في فستانك، كي تتمكني من حضور الزفاف.

أجابت ماما متنهدة.

أجبت وأنا اخلع معطفي الصغير، وألوح لماما بالكيس النايلون:

- لا داعي لذلك. ياسمينة أعطتني هذا بدلاً من الذي في يدك.

نظرت أمي باتجاهي للحظة. تمتمت وهي تحرك الإبرة داخل الشقوق:

- حسناً، ا خلعي ثيابك وابدئي في حل فروضك لأننا سنذهب مبكراً.

أعرف لماذا تصر أمي على اصطحابي للزفاف، كان كل همها إخراجي من حالتي النفسية الصعبة التي أعيشها بسبب ندبتي، لم أكن أريد الذهاب لأنني لا أريد التسبب لأمي بأي إحراج أو حزن.

أعرف أن السيدات لن يتوقفن عن الثرثرة بشأني، لكني أريد كسر هذا الحاجز لأجلي ولأجلها، فكرت بعلبة الكريم التي ابتعتها من متجر افتتح مؤخراً وسط المخيم، لاحت على وجهي ابتسامة خبيثة، وتنهدت بعمق وارتياح.

لم تكن الساعة قد تجاوزت الخامسة، عندما طلبت مني ماما البدء بارتداء ملابسي، طويت الكتب والدفاتر التي كانت أمامي على الطبلية الخشبية الداكنة.

طليت حذائي الأسود بطبقة من الدهان الأسود ليبدو جديداً، ارتديت ملابسي على عجلة من أمري، وأنا واثقة من أنها ستلائمني، فقياسي وقياس ياسمينة متقاربان للغاية، كويت منديلي وأنا أفكر كيف يمكنني الاختلاء بنفسي في الغرفة قبل أن تأتي أمي. قلت في نفسي: "يا صابت يا خابت"، هرعت إلى درج الملابس الداخلية وتحسست دفتري الصغير، وإلى جانبه علبة زجاجية باردة تأخذ شكلاً بيضاوياً، التقطتها و بدأت أغمس إصبعي السبابة في الزجاجة ثم ألمس خدي، أعدت الكرة عدة مرات إلى أن اختفت تماماً! نظرت إلى المرآة أطالع وجهي، وقد بدوت جذابة إلى حد كبير، وتخيلت ذلك الشاب عند المدرسة وهو يراني بوجهي الجديد!

لأول مرة منذ خمس سنوات، أرفع خصلات شعري الملتفة حول خدي وأشعر بأنني أطير، أشعر بحيوية كبيرة وبرغبة شديدة في الرقص والضحك بصوت عالٍ. خرجت إلى الصالة قبل أن تأتي أمي إلي الغرفة، وتبدأ في تأنيبي واستجوابي

على انفراد، هكذا أضعها أمام أمر واقع، فلن تطلب مني إزالة كريم التثبيت أمام هيفاء والخالة أم يوسف، اصفرّ وجه هيفاء وشحب لونها وهي تتطلع إليّ في هيئتي الجديدة، كان الشيء الوحيد الذي يطمئن هيفاء من أن عادل لن يفلت من يدها ويد أمها هو تلك الندبة، أما الآن فكل شيءٍ بات مختلفاً.

ابتسمت في وجهها متباهية، وأنا أهز رأسي وأنثر شعري إلى الخلف على غير عادتي هاتفة:

- ما رأيك؟

- لا يهمني وليس من شأنك أن تعرفي رأيي.

أجابت هيفاء ببرود وهي تبتعد نحو حجرة نوم والديها، بعد دقيقتين أو ثلاث تقريباً خرجت أمي من الحجرة ذاتها وكأنها تبحث عن شيء ما، توقفت تخاطبني وهي تحملق في وجهي:

- ما الذي فعلته؟ما هذا؟

- أخفيت الندبة بقليل من الميك آب، ما رأيك؟ ألست جميلة؟

- بلى، ولكن كيف توصلت إلى هذه الفكرة؟ كان عليك استئذاني يا حلا قبل أن تنفذي ما يدور في رأسك.

أجابت أمي بتوتر.

- لكنني لم أرتكب أي خطأ، ولم أظن أن هذا الأمر يستلزم استشارتك أولاً، ظننتك ستفاجئين وتفرحين لأجلي.

قلت والدموع تترقرق في عيني.

- كان عليك استشارتي أولاً يا حلا، كم مرة عليّ إخبارك بأن ندبتك ليست بشعة



كي تخفيها؟ كم مرة علي تكرار العبارة ذاتها؟ فقط أعيدي شعرك إلى مكانه إن رغبت في إخفائها.

عاتبتني ماما بصوت مختنق. أجبت والدموع تحرقني:

- ماما، مللت ترك شعري طليقاً لإخفائها، أحب شكلي هكذا، وأظن أنني لم أرتكب خطأً كبيراً لتؤنبيني، على كل حال سأزيل الكريم إن كان هذا ما تريدين، لكنني..

قاطعتني وهي تربت على كتفي:

-حسناً حلا، لربما أنت محقة، هكذا أفضل، كل ما في الأمر أنني لا أريد أن يظن الناس أنك بنت معقدة، تحاولين خداعهم بإخفاء الندبة، أنت رائعة الجمال، ومهما كان حجم ندبتك فصفاء قلبك وعذوبتك يمنحانك كل الجاذبية، صدقيني.

تابعت ماما بصوت رقيق.

- أمي، أنا لا أخدع أحداً، كل أهل المخيم وكل أقاربنا يعرفون بأمر ندبتي، ويعرفون من أنا وكيف هو وجهي، كل ما أريده هو أن أشعر بأنني قد تغيرت.

قلت بحنق وقد احمر وجهي.

من الواضح أن ماما نسيت أن الخبر هنا في المخيم ينتشر فور حدوثه، كأن كل الأهالي يعيشون معاً في البيت نفسه، هذه المرة تمكنت من إقناعها بسهولة، خرجنا من البيت كل تتحدث مع نفسها بينما تنشغل هيفاء بمراقبتي طوال الطريق، وعندما اقتربنا من بيت الحاج أبو عادل، سارت هيفاء أمامي لتحجب الناس عني أو لتحجبني عنهم، المسكينة لا تعرف أن عادل لا يعني لي الكثير، وكل ما يلفت نظري إليه ساعة اليد الفضية التي تزين معصمه، وتنزلق من وقت لآخر

لتختفي أسفل كُم القميص. شعرت برهبة شديدة وأنا أدلف إلى الصالة، كأنني أسير وحيدة تماماً والجميع يحدقون بي في ذهول.

كانت ماما تبتسم وتحيي الأقارب والمعارف تارة، وتقترب من بعض السيدات لتقبيلهن تارة أخرى. اقترب مني كثيرون لتقبيلي، وهم متعجبون بعد ذلك كيف تغطت وجوههم بالمساحيق. ركضت هيفاء باتجاه مجموعة فتيات يقفن بالقرب من غرفة تغيير الملابس، تحدثت معهن ثم لمحتها تومئ لهن وتشير باتجاهي، رفعت إحداهن جسدها النحيل لتطل من فوق كتفي هيفاء وحدقت في، حدقت الأخريات باتجاهي وأخذن يضحكن وأنا أزداد قلقاً.

تلفتّ حولي أبحث عن ماما والخالة أم يوسف، كانتا جالستين إلى طاولة بالقرب من سيدة تحمل طفلاً بين ذراعيها. أحسست أنني وحيدة وسط حشود الناس. كانت الفتيات اللواتي في مثل سني يرقصن ويضحكن، وأنا منشغلة في البحث عن رفقة تسليني، وأدرك في الوقت نفسه ضرورة التحرك أو عمل أي شيء، حتى لا أظهر خجلي وارتباكي لهيفاء أو أي سيدة تنظر باتجاهي. شعرت أن الجميع يحدقون بي ويراقبون كل حركة أقوم بها، لذا بدوت كأنني مكبلة لا يمكنني التصرف على طبيعتي، ألقيت التحية على السيدة وجلست بالقرب من ماما، همست السيدة بشيء ما لماما لم أستطع تمييزه، بسبب صوت الموسيقى المرتفع، ربتت أمي على فخذي باسمة "هههه لسّاتها زغيرة" فهمت ما ترمي إليه السيدة. كانت نظراتها مركزة باهتمام على وجهي وصدري، مدت أصابعها بخفة باتجاه وجهي، فانتابتني رعشة قوية لأنني خفت أن تلاحظ ندبتي المخبأة تحت طبقة الكريم السميكة، وسرعان ما تلاشى خوفي عندما قرصت المرأة خدي بعنف كأنها تغنجني! يا له من غنج! ابتسمت رغماً عني وأنا أفرك خدي من شدة الألم، أدارت الخالة أم يوسف وجهها باتجاه ابنتها هيفاء وهي ممتعضة.

بدت طاولتنا كأنها مركز الحفل، الكل ينظر باتجاهنا وأنا أفكر في السبب الحقيقي وراء ذلك، كان الطقس حاراً في الداخل، وفي الخارج برودة. فكرت

بأن أذهب للتمشي بالقرب من النوافذ الزجاجية، كانت رائحة البحر قوية، وقد ارتعش جسدي من برد الميناء، كأنني في دنيا أخرى كل ما فيها لطيف و رقيق، تحسست ندبتي وتمنيت لو أنها جزء من كابوس سينتهي عما قريب! اقتلعتني ضحكات هيفاء ورفيقاتها من سيل أفكاري الدافئة. كنّ أكثر رقة عن قرب! أشارت هيفاء باتجاهي كي أذهب وأشاركها هي وصديقاتها الثرثرة، تجاذبنا أطراف الحديث لأكثر من نصف ساعة ونحن واقفات، وكنت أدعو الله بصمت ألا تتفوه إحداهن بأية كلمة حول الندبة.

أخيراً طلبت مني الفتيات أن أشاركهن الرقص، تمنعت عدة مرات، وبعد إلحاح وإصرار منهن، وافقت على مشاركتهن الرقص، أبدت هيفاء امتعاضاً كامتعاض والدتها قبل ساعة، اتجهت إلى ماما واستأذنتها بالذهاب للرقص، بعد أن أذنت لي، توجهت وإياهن، بعضنا إلى الحمام وبعضنا الآخر باتجاه غرفة الملابس، كانت الغرفة صغيرة، تضايقت من الازدحام ومن المساحيق والعطور بروائحها النفاذة، تدافعت الفتيات نحو المرآة وأنا أنظر إليهن مستغربة سلوكهن ال"خشن" كأنهن في مسابقة! كنت أعلم أن الفتيات في هذا السن يرغبن دوماً في جذب الأنظار إليهن. ذلك يدفعهن إلى الاهتمام بمظهرهن حدّ المبالغة في ذلك.

لم أجرب دخول هذا "الميدان" من قبل، حشرت نفسي بين الفتيات وأخذت أقترب من المرآة، أتحسس طبقة الكريم فوق ندبتي، جذبتني إحدى الفتيات من ذراعي، وفي الوقت نفسه كانت هيفاء تدفعني خارج الغرفة، والأخرى تجذبني لأعتلي المنصة، ووجهي سينفجر لشدة الخجل. بدا كما لو أن هالة الضوء مسلطة حول وجهي وكل ملامحي مكشوفة، أغمضت عيني لوهلة وظهر التشنج واضحاً على وجهي وتفاصيل جسدي، كمن حجز في غرفة مظلمة لفترة طويلة، ثم خرج فجأة لاستقبال الشمس الساطعة، كانت التقلصات تشتد أسفل معدتي كأنها آلام دورتي الشهرية، ولولا أنني أعرف موعدها جيداً، وأدونه في دفتري لظننت أنها هي.

بدأت أرتعش و أتعرق وأنا أحملق في من حولي، هذه تصفق وتلك تهمس في أذن جارتها، وأخرى تصفق لطفلتها المتراقصة فوق إحدى الطاولات، وأخرى تقرص ابنتها الخجول في ذراعها لكي ترقص مثل الفتيات الأخريات، والسبب واضح!

تنبهت إلى أن هيفاء ورفيقاتها أخذن يرقصن ويخزنني في ذراعي كي أرقص، وأنا واقفة في مكاني كالبلهاء، والعرق يتصبب مني أكثر فأكثر، تشبثت بكف هيفاء وهمست لها بأن تبقي كفيها في كفي لأنني أخجل ولا أجيد الرقص. لم تسمع هيفاء ما قلت بسبب صخب الموسيقى، وكلما تنبهت أكثر لاكتظاظ الحاضرين خفق قلبي بقوة أكبر، وما زاد الأمور تعقيداً هو أن حرارة المكان بدأت تؤثر في طبقة الميك أب التي أضعها على وجهي، وأخذت في الذوبان. كانت ال"كاميرا وومان" تسلط عدسة الكاميرا الخاصة بها عليّ. حملقت في ضوء المصباح الكبير المثبت عليها، وأنا أضع يداً على ندبتي، ويدي الأخرى تلوح في الهواء كأنني أقول لها "لا تفعليها!"

نزلت عن المنصة مثل المجنونة، اتجهت إلى حيث تجلس ماما، وعيناي تفيضان بالدموع. فهمت أمي ما أرمي إليه دون أن أخبرها برغبتي في المغادرة، وسرعان ما أخذنا نسير في اتجاه باب الصالة.

٤
أمل جديد ووظيفة لابنة ال"١٦"

كنت أقف وأمي على ناصية الشارع صامتتين، بانتظار سيارة أجرة تقلنا إلى المنزل، وأنا أحاول حبس الهواء داخل جفوني كي أجفف دموعي المتطايرة، كان وجه أمي محمراً لست أدري خجلاً أو غضباً مما بدر مني، وكنت حينها أفكر في أشياء عدة منعتني من سؤالها إن كانت غاضبة مني أم لا، وأنا أراقب السيارات المسرعة بأضوائها المنعكسة على الإسفلت المبلل، وهي ترشقني وماما بالمياه الممتزجة بالطين، قالت ماما وهي شاردة النظرات:

- أرجو ألا نعاود الحديث فيما جرى الليلة.

- ولكننا لم نتحدث في الموضوع أصلاً.

- حلا، رجاءً أغلقي هذه السيرة الآن.

- حسنا يا أمي، ولكن صدقيني كانت خطتي ستنجح لولا حرارة الصالة والرطوبة و..

- خطة حذرتك منذ البداية، لم يكن ليتنبه أحد لولا ما تسمينه بال«خطة» يا حلا، لم يكن ليهتم أحد لولا اهتمامك الزائد بمثل هذه الشكليات، كل هذا الإحراج كان بسبب فعلتك السخيفة، وستتخلصين من ندبتك هذه عاجلاً أو آجلاً. أجابت ماما بانفعال.

-ها؟ ماما؟ ماذا تقصدين؟ كيف سأتخلص منها؟ أجيبيني أرجوك.

توقفت إحدى سيارات التاكسي بالقرب منا، ولم نتنبه لوجودها حتى بدأ السائق

يصرخ وهو يطلق العنان لبوق سيارته المزعج.

فتحت أمي باب سيارة الأجرة، وأومأت لي كي أجلس داخلها، ودفعت بجسدها البارد النحيل لتجلس ملاصقة لي، وهي تتطلع خارج النافذة، والمطر يتساقط بغزارة ويضرب سقف السيارة بقوة، شعرت بأنها لا تود الحديث كأنها ندمت على تصريحها الأخير بشأن الندبة، تساؤلات كثيرة كانت تدور في رأسي حتى يكاد ينفجر. لشدة توتري عاودني ذلك المغص من جديد، هل هو ألم عادتي الشهرية! إنه يزداد وبخاصة وأنا أستذكر نظرات الفتيات ونساء عائلتنا الحشريات وهن يثرثرن بشأن ندبتي.

كان صوت الرعد يمنعني من التركيز على ما قالته ماما ونحن في انتظار سيارة الأجرة، أحقاً تريد أن تخلصني من هذه الندبة؟ كيف؟ كيف اقتنعت وهي التي تعاتبني دوماً بسبب اهتمامي الزائد بها؟ كيف وهي تظنها أصغر من شارب يوسف الآخذ في الظهور؟

ترجلنا من السيارة. دلفنا إلى المنزل فوجدنا عمي جالساً هو ويوسف في الصالون، يلعبان الورق ويصرخان، وما إن سمع عمي صوت الباب حتى انتفض معتقداً أن زوجته معنا، فهو يعلم كم ستغضب إن رأتهما يلعبان الورق، وسرعان ما ارتاح عندما أدرك أننا عائدتان وحدنا، ثم استغرب عودتنا المبكرة. كان يوسف يرمقني وابتسامة لطيفة تلوح على شفتيه على غير عادته.

– يؤسفني ويسعدني في الوقت نفسه أنك عدت مبكراً يا حلا. خاطبني يوسف هامساً.

- لم؟. قلت هامسة وأنا أحاول حبس دموعي كي لا يكشف يوسف الأمر.

– امممم، يسعدني لأنني أراك الآن، ويؤسفني لأنك كما يبدو لم تستمتعي بوقتك هناك.

- لا عليك، فقد أمضينا وقتاً طيباً هناك، لكنني نعست فطلبت من ماما أن نعود إلى البيت. أجبت وأنا أشيح بوجهي كي لا يلمح يوسف دموعي.

- هههههه ولا تغلبي! أجاب يوسف ضاحكاً وهو يداعب شعره.

تبسمت برقة مصطنعة وأنا أحاول تجاهل نظرات يوسف، ألقيت نظرة على ورقة بيضاء كان عمي ويوسف يدونان فيها نتائج اللعب، لاحظت عدد ال«ماينوس» الذي حصل عليه عمي، نظرت إليه مبتسمة، فغمزني بعينيه وهو يضحك مشيراً لي بتمزيق الورقة، حينها فقط بدأ غضبي يزول وبدأت دموعي في التراجع لتبقى حبيسة بعض الوقت.

بدأت في خلع ثيابي ووضعها على الكرسي الخشبي المقابل لمدفأة الكاز كي تجف، كانت أمي تلقي بملابسها المبللة على طرف النافذة كي تترك لي مكاناً لتجفيف ثيابي، فكرت كم أحبها لأنها حنون! إنها جديرة بكل ما أكنه لها من حب. غير أنها ونحن في الغرفة لم تعرني أي اهتمام، وأظنها فعلت ذلك متعمدة كي لا أسألها مجدداً عما أخبرتني به ونحن عائدتان من حفل الزفاف. تجاهلت الأمر انصياعاً لرغبتها، ولكي أكفّ عن التصرف مثل فتاة صغيرة ملحاحة.

- ماما.. أود تذكيرك بأن غداً هو أول يوم لي في بيت السيدة أم وسام.

- أعرف.

- سأذهب وأعود مع يوسف كما اشترط عمي، لذا لا داعي لأن تقلقي علي.

- لست قلقة، وغداً بعد عودتك أقرر إن كنت ستستمرين أم لا.

قالت أمي وهي تفرد السجادة استعداداً للصلاة.

- إن شاء الله لن تضطري إلى تغيير رأيك، أنا واثقة من أن السيدة أم وسام امرأة لطيفة، وستحبني.

شرعت أمي في الصلاة ولم تعر كلماتي أي اهتمام. جلستُ عند طرف الفراش أفكر من جديد فيما حدث الليلة، شعرت بخيبة أمل عارمة وبدأ يتملكني إحساس قوي بأنني فتاة قبيحة لا يمكنها إخفاء عيوبها. ماذا تقول النسوة عني في غيابي الآن؟ أتخيل نظرات الفتيات وضحكاتهن وهن يشرن بأصابعهن النحيلة نحوي ويضحكن.

في الصباح التالي، تحججت لأمي بألم معدتي وامتنعت عن الذهاب إلى المدرسة، كي لا تحدثني أي من الفتيات بشيء مما حدث، ألقيت بجسدي المنهك في الفراش وأنا أفكر إن كان تغيبي عن المدرسة صائباً أم لا، لم أجد لدي أية رغبة في تمشيط شعري أو تبديل ثيابي أو حتى شطف وجهي بقليل من الماء، بقيت في الفراش إلى أن دقت الساعة الثالثة والنصف.

ارتديت ملابسي والتقطت بعض الأقلام والأوراق وبعض الدفاتر وكتاب «الأخطاء الشائعة في اللغة الإنجليزية»، وتأكدت من وجود العنوان في محفظتي. ها تمام، استأذنت أمي وصعدت نحو السطح لأرى إن كان يوسف في غرفته أم لا، وعندما لم أجده خرجت أبحث عنه بالقرب من باب المنزل، فإذا به يلعب الكرة مع أصحابه، طلبت منه نفض ملابسه المغبرة وتمشيط شعره المتعرق، كانت رائحة عرقه قوية جعلتني أسعل عدة مرات متتالية.

حينما وصلنا البرج الذي تقطن فيه السيدة، طلبت من يوسف مغادرة المكان، لأنني لم أرغب في أن يلمحه أحد بمنظره هذا، لكنه رفض متعللاً بأن والده طلب منه ألا يفارقني.

توقف بنا المصعد في الطابق الثامن حيث شقة أم وسام، وأخذ يوسف يقرع الجرس بلا انقطاع. ظهرت فتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها العاشرة أو الحادية عشر، وقد بدت مستغربة من مظهر يوسف، أشاحت بوجهها عنه تخاطبني:

- عفواً، هل لي أن أساعدك.

- ه.. هذا، هذه هي شقة السيدة أم وسام؟. قلت مرتبكة وأنا أنقل نظراتي بين يوسف والفتاة.

- نعم هذه هي، من حضرتك؟

- من فضلك أخبريها بأنني حلا.. بيننا موعد.

- مم.. دقيقة من فضلك.

أجابت الفتاة وأغلقت الباب نصف إغلاقة وهي تصرخ: «ماما،. ماما، واحدة اسمها حلا..» طلبت من يوسف الرحيل فانصرف. ظهرت السيدة أم وسام بالباب ودعتني للدخول.

تبادلت والسيدة أطراف الحديث، وأدركت كم هي سيدة مهذبة، عاملتني برقة بالغة طوال الوقت، وكلما لاحظت أنني أتصرف بخجل كانت تحاول تلطيف الأجواء.

عاد يوسف لاصطحابي في موعده. اتفقت والسيدة أم وسام أن أحصل على نقودي آخر كل شهر، وكنت سعيدة لذلك. استخدمت الكريم من جديد لإخفاء ندبتي، ويبدو أن أحداً لم يلاحظ ذلك مما كان بمثابة دفعة جيدة لي.

سرت ويوسف صامتين، وكان يسترق النظر إلى وجهي كل دقيقتين، ولم أعره أي اهتمام لانشغالي بالتفكير بكابوس الليلة الماضية، حيث حلمت أن ندبتي تكبر وتمتد لتغطي كل وجهي. تذكرت الجراحة التي لربما كانت أمي تراها الحل المناسب لمشكلتي، فكرت، أيعقل أن الجراحة ستزيد في اتساع حجم ندبتي؟ ومن أين ستحصل أمي على المال لإجرائها؟ يا الله كم أشعر بتوتر وضيق شديدين، أكره التفكير في مثل هذه الأمور التي أراها معقدة وسخيفة في الوقت نفسه.

أسرعت إلى ماما أحدثها عن زيارتي لبيت أم وسام، وعن سارة الصغيرة وعن فخامة شقتهم وإعجابي بجمال البحر الذي يرقد أمام منزلهم، وكيف كنت أتقمص شخصية معلمة حقيقية هناك!

٥

سر الحلم الذي مر سريعاً

عندما تخطو أولى خطواتك نحو حياة أجمل، تكون خطوتك الأولى هي التعرف على البيئة من حولك، والتقرب من الآخرين واكتساب عدد أكبر من الأصدقاء، وبعد مرور وقت كافٍ، وخوض تجارب عديدة يخيل إليك مرة أخرى أنك تمسك بالغربال! ويبقى من هذا الكم شخص واحد فقط ليثبت النظرية، وليؤكد أنه قادر على أن يكون وفياً حتى النهاية.

هاها! ستسألوني ما هي قصة الغربال فأجيب: القصة وما فيها أنك بعد تمضية عدة دقائق أو أيام أو سنين مع هؤلاء الأشخاص، وخوض عدد من التجارب معهم، تكتشف الحقيقي منهم والصديق ال«فشينك»، كمن يغربل القمح لتنقيته من الشوائب، هذه هي حكمة ماما في الحياة، توصيني دوماً بأن أحذر رفيقات السوء. ومنذ كنت طفلة صغيرة، كانت تحذرني من الغرباء ومن الذهاب لأي مكان مع أي شخص، مهما كانت الأسباب حتى وإن كان يريد شراء لوح شيكولاتة أو غزل البنات ليقدمها إلي دون مقابل. صديقتي ياسمين التي أحب أن أدعوها «ياسمينة» تعلم حكمة ال«غربال» وحين نكتشف أن إحدى الفتيات في شلتنا قد خدعتنا ودرست من وراء ظهورنا أو أخذت دروس تقوية في الرياضيات، نغضب غضباً شديداً ثم نتبادل النظرات الساخرة ونردد «حط أصحابك بالغربال اصحابك لو بتغربلهم!» نضحك بشدة ونضرب كفينا ببعضهما بعضاً ونسير.

ياسمينة ليست صديقتي فقط، فهي بالنسبة إلي ذلك الحضن الدافئ الصغير

بعد حضن أمي، منذ وفاة والدي وخالي، وهي ذلك الحائط الذي أستند إليه حينما يشتد عنائي، عندما أشعر بثقل في صدري وبأن لا أحد يفهمني ألجأ ل«ياسمينة»، هي الوحيدة التي تفهمني دونما حاجة إلى الكلام. أنا وياسمينة صديقتان منذ أن كنا نعيش في بيتنا القديم في حي النصر.

أحياناً أفكر أنه لربما صرنا صديقتين لأن كلتينا يتيمتان، ونفتقر لوجود عائلة دافئة متكاملة. كثيراً ما كنت أخجل أن تعرف زميلاتي بالمدرسة أن والدي متوفى، لا أحب أن يشفق علي أحد أو يظن بأنني محتاجة لرعاية الآخرين، ياسمينة تغضب مني وتظن أن علي أن أفتخر لأن والدي شهيد، وعندما أناقش ماما في الموضوع تقول: «حتى وإن لم يكن شهيداً، هو والدك وليس من العار أن يكون الواحد منا يتيم الأب أو الأم».

عندما تصاب أمي بخيبة أمل تردد: «عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» أو «كل تأخيرة وفيها خيرة» وهي تغالي في ترديد ذلك لتواسي نفسها.

أكثر ما يشدني إلى ياسمينة طيبة قلبها وصفائه، أحبها لأنها تشبهني في ذلك إلى حد كبير، في صفنا فتاة تدعى «لينا» نظنها مصابة بشيء ما في عقلها، لم أنتبه إليها إلا عندما نبهتني إليها ياسمينة، كانت ملامح الفتاة عادية جداً، لكن عينيها كانتا تلتمعان ببريق غير عادي، لم يكن بريق الأمل، الحب أو الذكاء، ما أعنيه هو أنه لم يكن بريقاً إيجابياً على الإطلاق ،كانت كل الفتيات يضحكن على لينا حينما تحاول الإنشاد أو القراءة، وكم كنت وياسمينة نغضب ونحن نلحظ عيني لينا تغرورقان بالدموع، وتصيح «باكية ضاحكة» في الوقت نفسه! لينا تحاول أن تكون فتاة جيدة ومتفوقة لكنها لا تلقى التشجيع من أحد، لا أحد يحبها أو حتى يحاول الاقتراب منها ومصادقتها، فالكل يدعوها المخبولة. عندما حاولت وياسمينة التقرب منها نبذتنا كل الفتيات وتعجبن مما كنا نفعله.

أعلم بأن ندبتي لم تكن سبباً في تقربي من لينا، ياسمينة كانت ذلك المغناطيس الناعم الذي جذبني إلى تلك الفتاة المسكينة، وجعلني أشعر أنها بحاجة إلى يد تمتد إليها، كم كنت أتألم وأنا أتطلع في عيني لينا! ياسمينة فقط كانت تدرك ما كانت عينا لينا تحملانه من أسى.

ياسمينة تلم بكل كبيرة وصغيرة في حياتي القديمة والجديدة في بيت عمي، عندما أخبرتها بشأن يوسف وكيف يهزأ بي بسبب ندبتي، كانت تشتمه وتغضب لأنني لم ألكمه لكمات متتالية حتى أحطم له أنفه الكبير! عندما تأتي لزيارتي ننتهز فرصة غياب عمي و يوسف، نصعد إلى غرفة يوسف لنشاهد بوسترات الفتيات التي يلصقها على كل جزء من الحائط، نفتش أدراج خزانته ومكتبه وحاسبه الآلي كذلك بحثاً عن الشيء الذي يستبقيه في غرفته كل تلك الساعات الطويلة، ونتنفس الصعداء بعد فترة بحث قصيرة. عندما يغضبني يوسف أشتكي لياسمينة فتنصحني بأن أهدده بما اكتشفته وتنجح تهديداتي بالفعل، يحمر وجهه وتنتفخ أوداجه غضباً من أفعالي، وأنا أخرج طرف لساني لأجعله يستشيط غضباً.

رجعت إلى فراشي وكنت متعبة جراء وقوفي المطول أمام طاولة الهاتف، وأنا أحمل السماعة وأنقلها من يد لأخرى بسبب التعب، هكذا أشعر دوماً عندما أنهي أية مكالمة مع إحدى صديقاتي، وبخاصة ياسمينة، كانت قلقة لأنني لم أذهب إلى المدرسة، حينما أخبرتها السبب، أقسمت أنها توقعت حدوث أمر سيء في ذلك الحفل المنحوس على حد تعبيرها، لكنها سرعان ما تناست استياءها بعد أن حدثتها عن رحلتي إلى بيت أم وسام.

انحنيت لالتقاط الرواية التي كنت أقرأها من فوق السرير، ورحت أقلبها كأنني أبحث عن شيء تائه هنا أو هناك، أخيراً لم أجد لدي رغبة في متابعة القراءة، وبخاصة بعدما بدأ بطل الرواية يصف جمال محبوبته. في الحقيقة، كنت أحب

رؤية نفسي في كل سطر جميل أقرأه وفي كل لوحة حلوة أرسمها في مخيلتي، الآن أرى نفسي بعيدة كل البعد عن ذلك الجمال الذي أحببته وشعرت به. لا أعرف ما الذي دعاني للتفكير بذلك الشاب الذي أظنني مغرمة به، أظنه ضرباً من الجنون أن تغرم بشخص لا تعرفه ولا يعرفك، ولا تعرف أصلاً إن كان يبادلك الاهتمام أو يلمحك حتى! لا أدري ما الذي يجذبني إليه، شعره المصفف بعناية، ساعة يده، حذاؤه الرياضي، ذقنه الحليقة أو قميصه الكاروهات الضيق! ماذا؟ حقاً لست أدري.

خطوت باتجاه خزانتي أبحث عن شيء تشتاق له أصابعي ومخيلتي، بدأت في تحسس الأشياء بحثاً عن صديقي الصغير، فتحته وبدأت أجهز قلمي وفجأة فقدت الرغبة في الكتابة، كمن يفقد الرغبة في تناول أشهى طبق يحب، قفزت إلى الفراش أسند رأسي إلى الحائط البارد ذي الطلاء المقشر، كنت أشعر بألم ما في جسدي ولا أدري مكانه تحديداً، بدأ رأسي يدور ويدور ولربما كانت الغرفة بأشيائها هي التي تدور، كل شيء بدا كأنه يدور..

- عندي مفاجأة لك يا حلا.

قالت السيدة أم وسام وابتسامة عريضة تزين وجهها الممتلئ.

- لي أنا؟ حقاً؟

- نعم، مفاجأة حقيقية وأظنها ستسعدك. أجابت وهي تهز رأسها بالإيجاب واثقة بقدراتها.

- مم، طيب أيمكنني أن أعرف ما هي؟. قلت بسذاجة.

- بالطبع لا! لو أخبرتك لن تصبح مفاجأة. اصبري يا فتاة، ستعرفين قريباً.

اختفت أم وسام من أمامي فجأة، كان وجهها يتلاشى شيئاً فشيئاً حتى اختفت

تماماً، شعرت وقتها بضيق فظيع في صدري، انتفضت والعرق يتصبب مني بكثرة، رفعت بصري إلى السقف حيث تنتشر بقع الرطوبة في كل مكان، أحاول تذكر ما الذي حدث واكتشفت أخيراً أنني كنت أحلم، خاب أملي، لكني شكرت الله لأنه لم يكن كابوساً كالعادة.

أسرعت أبحث عن ماما فوجدتها تشاهد أحد برامج الطهي التي تتابعها والخالة أم يوسف:

- ماما؟ ما أقصر حلم حلمت به في حياتك؟

- هههههههه في حياتي!، أجابت ماما تهز رأسها متهكمة من سؤالي.

- نعم في حياتك، لم تتجاوزي الخامسة والثلاثين بعد.

- صح. أتظنينها قليلة؟ لا أستطيع تذكر أقصر حلم رأيته، لكنني حلمت ذات مرة قبل أن أتزوج بوالدك، أنني أمسك بيدي شمعة صغيرة وكلما أشعلتها كانت تنطفئ، فجأة اقتربت مني كف رجولية لتشعلها، وبقيت الشمعة مضاءة ولم تنطفئ بعدها.

أجابت أمي متنهدة وبدت شاردة الذهن قليلاً.

- ممم، أظنها كانت يد والدي، صح؟ بعدها تزوجتما؟

- أظنها كانت كذلك، بعدها بعام تقريباً تقدم والدك لخطبتي، ولم أخبره عن حلمي وقتها.

اقتربت من وجه أمي الناعم وقبلتها في خدها قبلة صغيرة: «أحبك»، تبسمت واتجهت إلى الغرفة أجلس أمام المدفأة وأتنشق رائحة الكاز، داهمتني قشعريرة بسيطة ورحت أفكر بحلمي بالسيدة أم وسام وما تفسيره! لربما كان من «أضغاث الأحلام» كما تقول ماما، أو لربما كانت المفاجأة هي النقود التي ستعطيني

إياها شهرياً. تحسست ندبتي وفكرت من جديد كم سأكون جميلة دونها. منذ مدة أخبرتني جارتنا الخياطة أن ماما تود إقناعي بإجراء جراحة تجميلية كي أتخلص من الندبة، أخبرتها بأنني لا أرغب في ذلك، أعرف بأنها ستكون مكلفة للغاية وأمي لا تملك المال الكافي لذلك، ولا أريد أن أتسبب في إحراجها مع عمي أو غيره، كما أنني أكره المستشفيات وأكره رائحتها، أكره أسرَّتها وممرضاتها وأدواتها وكل شيء فيها.

ما يجعلني أكره الذهاب للمشفى هو منظر مشفى الشفاء هنا في غزة. يقع المشفى على الطريق العام حيث يزداد ازدحام السيارات والمحلات، ناهيك عن رائحة البنزين الآتية من المحطة القريبة من المشفى، ورائحة زيت الفلافل المستعمل، موقف السيارات إن كان يصح تسميته «موقف»، صراخ الباعة المتجولين و سائقي سيارات التاكسي وبسطات الفاكهة، لم أرَ المشفى من الداخل سوى مرتين في حياتي، عندما أفقت بعد قصف منزلنا لأجد نفسي ملقاة على أحد الأسرة هناك، والمرة الثانية عندما اصطحبتني أمي لزيارة إحدى قريباتنا التي كانت تعمل هناك، كان المشفى شديد الازدحام، المعدات معظمها قديمة، الأبنية مهترئة، الأرض متسخة إلى جانب النقص الكبير في المعدات والأجهزة الطبية والدواء بسبب إغلاق المعابر، لا أستطيع تصور نفسي أرقد في المشفى لساعات وأنا أئن وحولي كل ذلك الصخب والروائح الغريبة.



٦

هيفاء.. ماما.. وأنا
لكلٍ منا حكاية

هذه الليلة الأولى التي أنام فيها في ساعة مبكرة، خصوصاً وأن التيار الكهربائي لا يزال مقطوعاً. لم أحاول مطالعة أية مادة من مواد الغد، وأنا أعلم أن ذلك سيجلب لي المتاعب مع كل المعلمات، وبخاصة معلمة التكنولوجيا العصبية المزاج دوماً. في الصباح حدث ما توقعت وأنبتني مدرساتي كثيراً، طلبت مني معلمة التكنولوجيا مغادرة الصف حيث نعتتني بال"مهملة"، خرجت من الصف مسرعة كأنني كنت أنتظر اللحظة التي أطرد فيها من الحصة، كي أغادر وأقف في ذلك الممر البارد بالقرب من باب غرفة الصف. كنت أشاهد المطر المنهمر وبرك المياه المنتشرة في الباحة باستمتاع كبير كأنني في رحلة! حقاً هذا أجمل ألف مرة من قضاء الوقت في رفقة الفتيات ومعلمة التكنولوجيا، وحديثها الممل عن الفيجوال بيسيك والخوارزميات وغيرها، خجلت عندما مر أستاذ اللغة العربية ونظر إلي باستغراب، فقد كنت متفوقة في البلاغة والنصوص، إحم إحم، تراجعت للخلف وألصقت جسدي بالحائط أطأطىء رأسي ويتملكني إحساس بالضيق، لم ينبس الأستاذ ببنت شفة وتابع سيره، فجأة سمعت الجرس يعلن بدء الفسحة، خرجت الفتيات يتدافعن من الباب بسرعة، وأنا أبحث عن ياسمينة بينهن، لمحتها تجاهد للخروج من حشد الفتيات وتندفع نحوي:

- ياسمين، أستاذ خليل مر بي وأنا أقف وقد بدا غاضباً مني، أظنه لم يتوقع رؤيتي أقف هنا، تمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعني.

- هذا أفضل، حذرتك المعلمة عدة مرات، لقد حللت التدريبات في عشر دقائق فقط، كان بإمكانك التفرغ لحلها، لا أدري ماذا كنت تفعلين لو كان لديكم خط انترنت في البيت! أراهن بأنك كنت ستمضين ما تبقى من هذه السنة وأنت تقفين بالباب.

قلت وأنا أشتعل غضباً على ياسمينة:

- من أخبرك أننا لا نملك اشتراك إنترنت يا حلوة؟ لمعلوماتك فقط، يوسف قام بمد خط إنترنت من عند بيت عادل، لكنه أبقى الأمر سراً عن عمي، وهو يمضي الليل كله تقريباً في تحميل ومشاهدة الصور والأفلام ولعب الكاونتر أو الفيفا مع رفاقه.

- كل الأولاد هكذا، المهم، أرأتك ناهد وأنت تقفين هنا؟

- لا.

- احمدي الله على ذلك وادعيه ألا يتكرر ما جرى اليوم يا "مهملة" ههههههههههه.

قالت ياسمينة وهي تحاول استفزازي كعادتها، كي تدفعني لتغيير أية عادة سيئة أقوم بها، كإهمالي في دروسي وقلقي المستمر بشأن ندبتي والجراحة التجميلية التي يشجعني الكل على إجرائها.

مر اليوم ببطء شديد كأي يوم من أيام حياتي، وبخاصة عندما يكون لدي حصة تكنولوجيا أو رياضيات، كنت مغرمة بهاتين المادتين لكن المعلمات هن السبب في إهمالي المتكرر ومللي من الحصص، على عكس حصة اللغة الإنجليزية التي أعشقها وأسارع إلى حل الفروض الخاصة بها، لطالما تمنيت أن أصبح معلمة لغة إنجليزية، وها هي السيدة أم وسام جعلتني أحقق جزءاً من هذا الحلم.

عدت إلى البيت تعبة وجائعة جداً، وازداد شعوري بالجوع عندما وصلت إلى الزقاق حيث بيتنا، واستطعت تمييز رائحة محشي الملفوف اللذيذة تنبعث من نافذة مطبخنا الصغيرة، عندما أكون عائدة من المدرسة تفوح روائح أطعمة أستطيع شمها من مسافة، فأركض باتجاه البيت وأنا أدعو الله أن تكون هذه الروائح منبعثة من شباكنا. يخيب أملي عندما أشاهد أطباق الكوسة والباذنجان المقلي، لكن هذه المرة أنا متأكدة من أنها رائحة ملفوف أمي اللذيذ.

بعد تبديل ملابسي توضأت وصليت الظهر بسرعة، مما أغضب ماما لأنني لم أبذل أي مجهود للتأني في صلاتي، الغريب أن ماما نفسها تصلي أحياناً على عجلة من أمرها عندما، حينما تكون مشغولة بأمر ما، حاولت الانشغال بشيء ما كي يمضي اليوم، ولم أجد شيئاً ممتعاً أكثر من النوم، أنام كل يوم تقريباً ثلاث أو أربع ساعات متواصلة كي يمضي الوقت سريعاً، وتشرق شمس يوم جديد لربما يحمل شيئاً ساراً بين ثناياه الشتوية. أفقت من النوم على صوت طرقات شديدة على باب البيت، سمعت صوت هيفاء وصوتاً آخر مألوفاً لإحدى الجارات، فلم أكترث وفكرت في أخذ قسط آخر من النوم لكني لم أستطع.

كانت هذه جارتنا أم عادل تجلس في غرفة الضيوف رفقة ماما والخالة أم يوسف، تفاجأنا جميعاً عندما أخبرتنا أم عادل بأنها جاءت لدعوتنا إلى عقد قران عادل على إحدى قريباته، نظرت بلا وعي باتجاه هيفاء التي شحب وجهها، واتسعت حدقتاها بمجرد تلفظ أم عادل بعبارتها الأخيرة. ركضت خارج الغرفة مسرعة، استأذنتُ وأسرعت خلف هيفاء التي كانت تقف أمام الشباك المطل على بيت الحاج أبو عادل وتجهش في البكاء، أصابعها تتشبث بالستار المهترىء على جوانب النافذة، ربت على كتفها متمتمة:

- هيفاء أرجوك لا تبك. أعرف أنك حزينة لأن عادل سيتزوج لكن..

حاولت البحث عن كلمات مناسبة، لكني لم أجد شيئاً مقنعاً أقوله لإرضائها.

- هيفاء، حبيبتي أعرف أنه من الصعب أن تتفهمي ولكن صدقيني هذا ليس حباً، أنت لست مغرمة بعادل، فهو يكبرك بعشرة أعوام على الأقل، إنه فقط إعجاب أو نزوة، عادل شاب وسيم وأنيق، ولن يكون من الصعب أن تتصوري بأنك تحبينه ولا يمكنك العيش بدونه، هيفاء..

قاطعتني هيفاء غاضبة:

- أمثالك لا يجب أن يقعوا في الحب أصلاً، لأنه لن يجلب لهم سوى المزيد من الحزن وخيبة الأمل، أنت لا تعرفين ما هو الحب ولا أظن بأنك ستعرفينه يوماً ما، فأرجوك كفي عن فلسفتك الزائدة التي لن تجلب لك سوى المزيد من المتاعب..

أنهت هيفاء عبارتها لاهثة منفجرة في بكاء مرير.

حاولت السيطرة على دموعي بالرغم من شعوري بالحزن لما قالته هيفاء، زفرت بعمق:

- أنت محقة، أنا لا أعرف الكثير عن الحب، لكن ماما أخبرتني بأن الحب في سننا مجرد وهم، نتصور أنه حقيقة نعيشها ونرفض التصديق أننا نتوهم، لكن من السهل نسيانه بقليل من الصبر، إن توهمنا بالحب هو أسوأ ما قد يمر بنا في مثل هذه السن، صدقيني أنت لا تحبين عادل لكنك معجبة بشكله وطريقة لباسه وحديثه لا أكثر، حينما تنضجين ستعرفين أنها الحقيقة.

ناولت هيفاء منديلاً كنت أحتفظ به في جيبي، وخرجت من الغرفة أجر خطواتي حزينة أفكر بما جرى لهيفاء وما أخبرتني به.

أسرعت إلى الغرفة التي أنام فيها أنا وأمي، ووقفت أمام المرآة أنظر إلى وجهي، تحسست الندبة بأطراف أصابعي. أتساءل بمرارة: أحقاً لا يحق لأمثالي من

المشوهين الوقوع في الحب؟ ولكن أحقاً أنا مشوهة؟! أهو من المحرمات أن تقع مثيلاتي في حب أحدهم؟ أمكتوب علي تمضية بقية حياتي وحيدة؟ ألن أتزوج وأزف بفستان أبيض ناصع كالثلج بجيبونة منتفخة ووجه مغطى بالماكياج، وأصبح عروساً كباقي الفتيات حينما أكبر؟ ألن أنجب أطفالاً صغاراً ممتلئي الأجسام، بوجنات حمر وشعر أشعث نوعاً ما؟ أكل هذا لأني مشوهة؟ لكني لم أفعل ذلك بنفسي، هذه هي قسمتي، هذا ما كتبه الله لي، لماذا يحاسبني الناس على شيء لا دخل لي به، وإن يكن، فبماذا أختلف أنا كإنسانة بقلب وروح عن غيري من الناس؟ بماذا يختلف شخص كتب عليه أن يمضي بقية أيام حياته على كرسي بعجلات عن ذاك الذي يسير على قدميه؟ بماذا تختلف فتاة تعاني من مشاكل في بصرها عن تلك التي لا تضطر لوضع نظارة سوداء؟ بماذا يختلف شاب أو طفل صغير بعاهة أو تشوه في أي من أعضائه عن أصدقائه الأصحاء؟ بماذا يختلف من قصف بيته واضطر للمبيت في العراء وحيداً يتيم الأهل، عمن ينام في أحضان أسرته طوال الوقت؟ بكيت، بكيت كثيراً لا أدري على أي شيء تحديداً! خيم علي حزن شديد وبرد ينتشر في كل نقطة في جسدي.

حاصرتني وحدة قاتلة. لأول مرة منذ خمس سنوات، الآن فقط، تأكدت من أني وحيدة، هذه الندبة هي سجني، لن أجد من يمسح لي دموعي ويربت على كتفي أو يحسّ بي غير دفتري الصغير، سأبقى أنا وهو حبيسين حتى تطلق هذه الندبة سراحنا، ونتمكن من العيش بسلام كباقي الناس، شعرت بأنني لم أعد قادرة على التنفس، وكان هواء الغرفة يتسرب إلى الخارج ببطء، لم أجد حلاً وقتها سوى مهاتفة ياسمينة، لكي تشعرني ببعض الأمان والراحة، خصوصاً وأن أمي مشغولة الآن بضيفتنا الثقيلة.

هاتفت ياسمينة فلم أجدها في البيت، شتمتها بدل المرة عشراً، لماذا الآن تخرج هذه ال....، ياالله! تمنيت لو أصفعها وألكمها كثيراً، إذاً لا شيء بوسعي القيام

به الآن سوى حل فروضي المدرسية والمذاكرة، إلى أن تعود الست ياسمينة من مشوارها. لم أكن أرغب في التحدث إلى ماما بشأن الندبة، لأنها ملت قلقي المستمر وبات الحل لديها هو إجراء الجراحة، يصيبها اكتئاب شديد وهي تنظر إلى وجهي، وتشرد عندما أجلس أمامها، نظرات أمي تشعرني بالخجل من مظهري، أحاول الإشاحة بوجهي عنها كي لا تلتقي عيوننا وأبدأ بالبكاء. لم تكن الفروض كثيرة، تمكنت من إنجازها جميعاً في أقل من نصف ساعة، بعدها ضغطت على نفسي قليلاً وحاولت مذاكرة القليل من الجغرافيا والهندسة استعداداً للغد، لم تكن قصيدة أحمد مطر بحاجة إلى مذاكرة. كانت بالنسبة لي أسهل من حفظ أغنية لعمرو دياب شاهدتها مرتين على التلفاز.

أشرقت شمس صباح جديد بعد عناء طويل، مع غيوم تحجبها بين الحين والآخر. لم أضيع وقتي في المذاكرة سدى الليلة الماضية، فقد لاحظ أستاذ العربية ومعلمة الرياضيات نشاطي واستعدادي التام للدرس، مما أعاد لي شيئاً من الثقة بنفسي وبعقلي الكسول. بينما كنت وياسمينة عائدتين إلى البيت وخزتني في يدي عدة مرات، لتنبهني إلى شخص ما في الطرف الثاني من الرصيف، كان ذلك الشاب تسير بقربه فتاة صغيرة بدت في العاشرة من عمرها تقريباً، لكني لم أستطع تمييز ملامحها جيداً بسبب الازدحام وبعد المسافة. تقمصت شخصية المحقق كونان لمعرفة هوية الفتاة التي كانت كفها الصغيرة تتعلق بأصابعه الطويلة، وبمجرد أن وصلت البيت أمسكت بي ماما وابتسامة عريضة تلوح على شفتيها:

- حلا، أتعرفين من أتى لزيارتي اليوم؟

- من؟ قلت بلهفة.

- أم محمد.

- الخياطة؟ قلت محملقة.

- ومن غيرها؟ سأبدأ العمل بدءاً من صباح الغد، مما يعني أننا سنتمكن من توفير نقود لجراحتك. إن لم نتمكن من الحصول على دور قريب في مشفى الشفاء، لن نكون بحاجة لأن ننتظر كثيراً. قالت أمي لاهثة وهي تجفف العرق المتصبب على جبينها بطرف كمها.

- يمكننا الانتظار، نحن بحاجة إلى النقود.

- سنجري الجراحة على نفقتنا في عيادة خاصة، أتعلمين؟ طاقم الأطباء والمعدات المستخدمة في المشفى، أفضل بكثير من العيادات الخاصة، لكن المشكلة في النقص الطارئ في بعضها، بسبب الحصار. أتمنى أن تنجح الفصائل في التوصل إلى اتفاق كي تنحل كل الأمور.

٧
مفاجأة حلوة.. ولكن!

تحاول أمي جاهدة أن تجعلني سعيدة، أعلم أنها تود مساعدتي بكل الطرق مهما كلفها الأمر، كانت صحتها المتدهورة يوماً بعد يوم تشغل تفكيري، من المؤكد أن العمل في ذلك المشغل سيرهقها أكثر وأكثر، شعرت بتأنيب الضمير لأنني سأكون سبباً مباشراً في تعب ماما، أمسكت دفتري وبدأت أدون:

"الأوضاع هنا في غزة باتت مؤسفة للغاية، لا يمكن لأحد دخول البلاد أو مغادرتها إلا بعد جهد جهيد، وذلك إن حالفه الحظ أصلاً. كثيرون من أبناء المخيم يفكرون بالسفر أو الهجرة إلى دول الخليج أو الغرب، إما لإكمال دراستهم أو لإيجاد فرص عمل، أضف إلى ذلك الفتيات اللاتي يردن السفر للقاء أزواجهن وعوائلهن الذين ينتظرونهن منذ سنين. ست أو سبع فتيات على الأقل في زقاقنا ينتظرن الفرصة المناسبة لحمل حقائبهن ومغادرة غزة بلا رجعة، حيث ينتظر أزواجهن وأهاليهن».

أصحاب التأشيرات والفيز والإقامات يندبون حظهم السيء الذي "رماهم" في غزة، كما أن العديد من معارفنا وجيراننا في المخيم ممن يعانون من الأمراض المزمنة ينتظرون أن تنحل أزمة المعابر، كي يذهبوا لتلقي العلاج في الأراضي المحتلة أو خارجها. قبل أسبوعين، توفيت حاجة يقع بيتها في آخر الزقاق، لأنها لم تتمكن من السفر والحصول على جرعة "الكيماوي" في الوقت المحدد، ليش أروح بعيد؟ جارنا أبو عادل يعاني آلام الغضروف منذ أكثر من ست سنوات، وهو

الآخر ينتظر كي تفتح الطريق، ويسافر لإجراء جراحة عاجلة في مصر، أظن أنه يشعر الآن بسعادة لأنه سيتناول كمية كبيرة من الجاتوه والحلويات في حفل عقد قران ابنه عادل، لطالما حذره الطبيب من وزنه الزائد وكرشه الكبير لكنه يعشق الطعام عشقاً لا يوصف.

عادل لا يشبه والده بالمرة، فالأخير يمتلك عينين عسليتين قادرتين بالرغم من صغرهما على حفظ تفاصيل جسدك في أقل من ستين ثانية، كلما كنت أذهب لشراء المانجو أو أي نوع من الفاكهة، أسأله إن كان طعمها حلواً فيجيب "زي العسل يا عمي" ونكتشف أخيراً أن طعمها لا علاقة له بالعسل أو مشتقاته، تؤنبني ماما لأنه "استهبلني" على حد تعبيرها.

ما زلت أحلم بردة فعلها حينما أهديها ذاك الثوب المطرز والشال المشغول، اللذين شاهدتهما في أحد محلات الملابس باهظة الثمن في حي الرمال.

حلمت ذات مرة أنني ذهبت لأشتريهما فوجدت واجهة المحل خاوية منهما تماماً، حينها قمت بضرب الواجهة الزجاجية بكلتا يدي ضربات سريعة متتالية حتى هشمتها، وكنت ألهث بعنف، انتفضت في فراشي باكية مصرة على الذهاب لشرائهما في أقرب وقت مهما كان السعر مرتفعاً، آآآآآه، أتمنى أن تفتح المعابر عما قريب كي تعود غزة كما كانت في السابق.

٩:٢٣ ليلاً... يتبع

ها هو نوفمبر يقترب من الانتهاء، وأنا ما زلت في حيرة من أمري بشأن تلك الجراحة، حقاً التفكير المتكرر بها يبدو مملاً للغاية، يختلف تفكيري بالندبة اختلافاً كلياً عن تفكيري بذلك الشاب الوسيم، رأيته اليوم أيضاً وأنا عائدة من المدرسة، كان يبدو في عجلة من أمره وهو يهم بإيقاف سيارة تاكسي، لم يلحظني وكان كل اهتمامه موجه إلى ساعة يده التي كان ينظر فيها.

اليوم هو الاثنين، يعني أنني سأذهب لمنزل السيدة أم وسام لتعليم سارة، لم يذهب يوسف برفقتي حيث كان مرتبطاً بمباراة كرة قدم مع أولاد المخيم، وكان ذلك أفضل شيء فعله في حياته! اتفقت ويوسف بألا نخبر عمي بذلك، أقنعته بأن ذلك سيكون في صالحنا نحن الاثنان، هكذا سيتمكن هو من اللعب كما يشاء، وأتمكن أنا من الذهاب والعودة دون «عكننة» مزاجي بمرافقته، حملق بي للحظات مفكراً في عرضي المغري، ومن ثم أومأ برأسه بالإيجاب.

ارتديت ملابسي على عجل، ووضعت قليلاً من الكريم على الندبة لإخفائها. تبسمت لنفسي في المرآة: «تمام»، فضلت الذهاب سيراً، شعرت كأني في رحلة حلوة أتنشق الهواء النقي دون رائحة يوسف الخانقة، بسبب كميات الجيل التي يضعها على شعره ليثبته على شكل "سبايكي". لم تكن السماء صافية كما في الصباح، بدت ملبدة بقليل من الغيوم. وددت لو تمطر وتبللني، صعدت بالمصعد وعندما أغلق الباب حاولت ترتيب ثيابي، تأكدت من وضعية منديلي ومن طبقة الكريم على ندبتي، فتحت سارة الباب قبل أن أقرع الجرس.

- رأيتك من الشرفة. قالت متبسمة.

- وكيف توقعت وصولي في هذه اللحظة؟ كان من الممكن أن أصعد الدرج.

- لن تتمكني من ذلك، يصيبك إرهاق شديد. وأنا أعلم أن كل الفتيات يحببن المصاعد لتسوية ملابسهن على المرآة المثبتة بالداخل. قالت سارة بمرح

- ههههههههه يا لك من فتاة ذكية. قلت وأنا أخطو داخل البيت، «أين ماما يا سارة؟»

- ماما خرجت مع وسام لشراء بعض الأغراض من السوبر ماركت، عشر دقائق ويكونان هنا، لا تقلقي يا آنسة. أومأت لي سارة بالجلوس.

- آنسة هههههه سارة.. أتحبين أن نكون صديقتين؟

- ها؟ صديقتان؟

- نعم، أتمانعين في أن أصبح صديقتك؟..

- بغض النظر عن فرق السن. تابعت ممازحة.

بينما كنا نجلس في غرفة الضيوف قبل رحيلي بقليل، لمحت صورةً من بعيد كانت موضوعة على إحدى طاولات الزينة الخشبية لرجل بزي عسكري زيتي، أظن أنني قابلته قبلاً لكن لا أذكر أين تحديداً، حاولت التركيز على ملامح الرجل لكنه بدا أصغر من الشخص الذي في مخيلتي، غادرت وأنا ما زلت أحاول تذكر أين صادفته.

مرت أيام وليالٍ وأنا أفكر وأتذكر إلى أن حان موعد ذهابي إلى بيت السيدة أم وسام، فكرت في سؤال سارة عن صاحبهاجلست أنتظر قدومها على أحر من الجمر، وأنا أحملق بصورة الرجل الذي بدا في الثلاثينيات من عمره، كان بعينيه الداكنتين يشبه شخصاً، بينما صورته ككل تشبه شخصاً آخر، أخبرتني سارة بأنها صورة والدها حينما كان في الشرطة، شعرت حينها بأنني أخطأت وكان ذلك مجرد شبه عادي لا أكثر.

حدثتني الفتاة في ذلك اليوم عن والدها وعمله، وعن والدتها وعن شقيقها وسام الذي كان يدرس الهندسة المدنية في سنته الثالثة، وكيف أنها تحبه بسبب طيبة قلبه وحبه الجم لها، كما أخبرتني بأنه يكتب الشعر ويحفظ معظم قصائد أحمد مطر، ونزار قباني، ومحمود درويش، وفاروق جويدة وغيرهم، ووعدتني بأن تقرأ لي بعض قصائده حينما يخرج من البيت، قالت إنه لا يحب أن يعبث أحد بقصائده. كذلك ثرثرنا كثيراً بشأن شقيقتها وأولادها الأربعة.

مرت الأيام والأسابيع، وازداد تعلقي بسارة وتعلق سارة بي، حدثتها عن قصف منزلنا القديم واستشهاد والدي، وعن ندبتي. لم تشعر سارة بالسوء عندما أزلت

طبقة الكريم كاشفة عن ندبتي المختبئة أسفلها، وعدتني بأنها لن تخبر أحداً عن ذلك، ولن تفشي السر مهما كلفها الأمر.

بعد أن تزايد إصرار أمي على عرضي على طبيب جراحة مختص، بدأت بادخار النقود كي أساعدها. أحاول إقناع نفسي بأن إجراء الجراحة سيعيد لي ثقتي بنفسي، ولن أشعر بالخجل أو الضيق لو شاهد ندبتي أحد ولن أضطر لاستخدام الكريم وإنفاق المال لشراء المزيد منه.

أخبرتني ياسمينة بأن عليّ مقارنة النقاط السلبية بالإيجابية، لأعرف إن كان علي إجراء الجراحة أم لا، أمسكت بورقة بيضاء ورسمت خطاً يقسم الورقة إلى خانتين، وضعت السلبيات في الخانة الأولى والإيجابيات مقابلها، وكانت النتيجة كما توقعت ياسمينة، بدت إيجابيات موافقتي على إجراء الجراحة أكثر من سلبياتها، مما أشعرني بشيء من الراحة.

عرضت ياسمينة عليّ إقراضي بعض المال، حيث كانت هي الأخرى تدخر شيئاً من مصروفها للطوارئ، تثبت لي ياسمينة يوماً بعد يوم كم هي طيبة ووفية، اصطحبتها وذهبنا إلى المكتبة لإعادة الروايات التي استعرناها من هناك. كانت السيدة منيرة تجلس إلى مكتبها الخشبي تطالع الجريدة، وينبعث صوت فيروز العذب من المذياع بالقرب منها: «طيري يا طيارة طيري يا ورق وخيطان، بدي ارجع بنت زغيري على سطح الجيران.. وينساني الزمان على سطح الجيران».

ألقينا التحية وتحدثنا قليلاً مع الخالة منيرة في عدة أشياء، أخبرتنا أنها اعتقلت عدة مرات عندما كانت صبية لأنها كانت مناضلة، لذا تعشق فيروز ودرويش وشجر اللوز ورائحة الليمون التي تجمعهما. كانت تعاني من مرض لست أعرفه تحديداً ولكن ياسمين أخبرتني بأنها أصيبت به في المعتقل، والآن لا تستطيع مغادرة غزة لتلقي العلاج في الخارج بسبب إغلاق المعابر، الآن أضيف الخالة

منيرة لقائمة «الانتظار الطويل» حيث كانت هي الأخرى تنتظر أن تفتح المعابر لإتمام علاجها، وكم تمنيت لو تسافر الخالة منيرة قريباً كي تتماثل للشفاء وتعود تلك الابتسامة الحلوة لتزين وجهها.

تذكرت فجأة أنني أضعت رقم هاتف السيدة أم وسام، وكان من الضروري أن أعتذر عن عدم قدرتي على الحضور للدرس بسبب الامتحان، اقترحت ياسمينة الذهاب للبيت والاعتذار لأم وسام، وصلنا الشقة وما إن قرعت الجرس بخفة حتى ارتفع صوت رجل في الداخل، وكانت المفاجأة التي لم أكن أتوقع حدوثها مطلقاً، كان هو.. كان هو! نعم، الشاب الذي أراه بالقرب من مدرستي! تلعثمت وأنا أراه للمرة الأولى يقف أمامي من هذه المسافة القريبة جداً، مرتدياً تريننج سوت رمادية، بشعره الأشعث عاري القدمين، يضع يداً في جيب «التي شيرت» والأخرى يداعب بها شعره الرطب، أسرعت أسوي منديلي وبحركة عفوية وضعت أطراف أصابعي على خدي:

- أ..أنا.. حلا، أريد أقصد، آ.. هل خالتو أم وسام أو سارة بالبيت؟. قلت متلعثمة

نظر إلي الشاب باستغراب:

- ياستي ماما بالبيت وسارة كمان بالبيت، تفضلا.

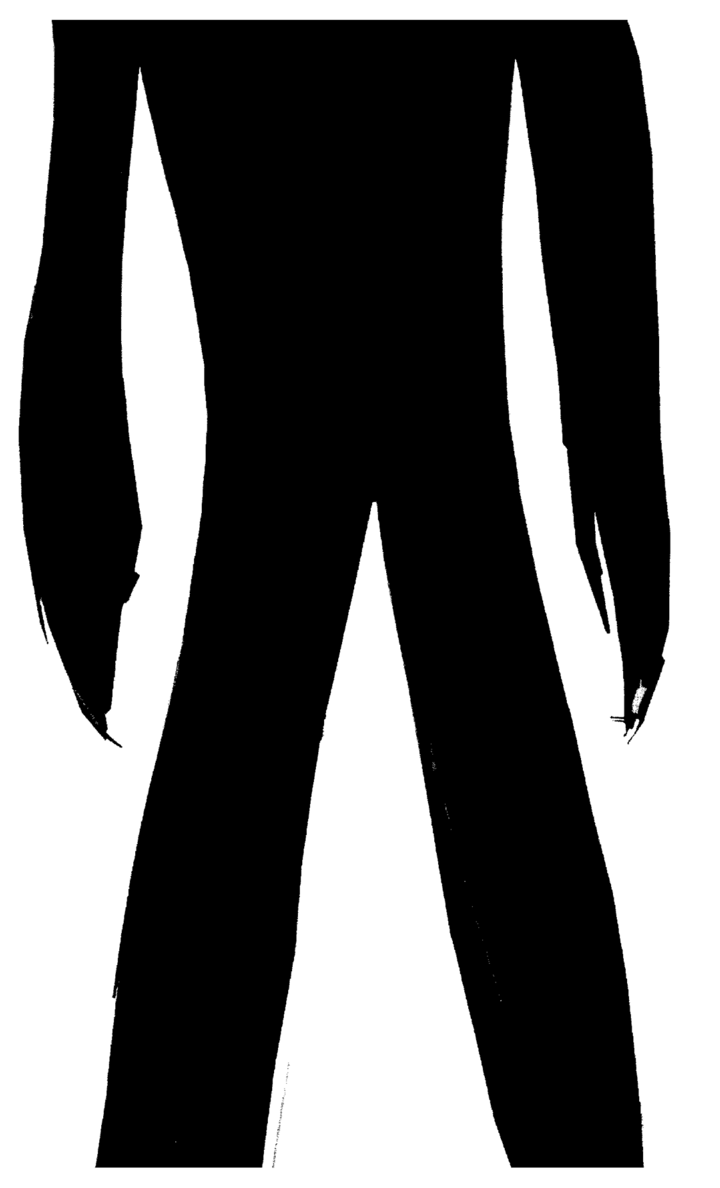
أشار لنا بيده كي ندخل بعد أن توقف عن مداعبة شعره، نظرت إلى ياسمينة التي كانت تقف خلفي كالطفل الخائف، وبدونا مترددتين نوعاً ما في تلبية الدعوة:

- لا تخافا لست بعبعاً، ثواني وتكون ماما هنا، تفضلا لكن إن أردتما البقاء بالباب فلا مانع لدي.

أجاب ببرود واختفى من أمامنا في عجلة، تبادلت وياسمينة نظرات الاستغراب والخجل، وبعد أقل من دقيقة ظهرت أم وسام تعاتبنا لوقوفنا بالباب، اعتذرنا

بلطف بحجة استعجالنا للمذاكرة للامتحان، وأخبرتها عن سبب مجيئي، لمحت سارة تطل من خلف أمها تلوح بذراعها، لوحت كلتانا للفتاة الصغيرة واستأذنا عائدتين والصمت يلفنا للمرة الأولى.

٨



خوف.. وأمل

أيعقل أن يكون هو؟ أيعقل أن يكون وسام الذي أدخل وسارة غرفته دون إحم أو دستور، ونعبث بأغراضه الشخصية ونسرق كتاباته، هو الشاب نفسه الذي كنت أتمنى لو يلمحني مرة واحدة في حياتي أو يعيرني أي نوع من الاهتمام؟ يالها من مصادفة غريبة بالفعل ويالها من دنيا صغيرة، الآن فقط فهمت ما كان يعنيه خالي عمر رحمه الله بقوله: "الدنيا صغيرة كالعلبة"، كنت أهز رأسي بالإيجاب اعتقاداً مني أنه يقصد بقوله "الدنيا" أي "غزة"، غزة مدينة صغيرة جداً لو أردنا التحدث عن المساحة، كنت أعتقد أن خالي لم يضف جديداً لمعلوماتي، فأنا أدرك كم هي غزة صغيرة، ولكن الآن فهمت قوله كما عناه هو بالضبط.

دلفت إلى البيت بصمت حتى دون إلقاء التحية. لم أكن راغبة في تناول الطعام ولا حتى في المذاكرة للامتحان.

دفعت بجسدي إلى الفراش أفكر، ماذا سأفعل في المرة المقبلة؟ ماذا سأرتدي ومتى سأذهب؟ كيف سأسير في الشارع؟ لربما سيقف في الشرفة ويراني صدفة كما فعلت سارة مرة، المرة المقبلة سأضع كمية أكبر من الكريم، لربما ستكون حرارة الشمس مرتفعة ويذوب الكريم كما حدث في ذلك الحفل. قفزت أبحث في خزانتي وأفكر ماذا أرتدي حين أذهب إلى هناك، أي منديل أضع؟ لو كان الجو ماطراً سأرتدي هذا المعطف الزهري، وإن لم يكن سأرتدي الجاكيت الأزرق الداكن.. يالله أضعت زره قبل يومين ولم أعثر على واحد مشابه، أف! ربما علي مهاتفة ياسمينة علني أجد زراً مشابهاً، استلقيت مجددا في فراشي أفكر

بتفاصيل اليوم. شعرت بالنعاس يتسلل إلي.

راودني الكابوس القديم، حلمت بأنني في ذلك المكان الغريب عن المخيم، أقف أمام ظل شاب يأخذ في الاقتراب مني ببطء، فجأة تنحسر هالة الظل لتنكشف معالم وجهه، تتسارع خفقات قلبي بطريقة جنونية وأشعر بسرور غامر، لكنه فجأة يبتعد مشمئزاً وهو يحملق في وجهي، أخفيه بين كفي وأجهش بالبكاء وأركض مبتعدة.

سمعت طرقات خفيفة على الباب، كانت خالتو أم يوسف تخبرني بأن ياسمينة على الهاتف، أتمت ياسمينة مذاكرتها وهاتفتني لتطمئن إن كنت أنا الأخرى أتممت المذاكرة للامتحان، كانت هذه المرة الأولى التي أكذب فيها على ياسمينة وأخبرها بأنني أنا الأخرى ذاكرت وأتممت كل فروضي.

– تكذبين، ما زلت تفكرين به.

هتفت ياسمينة بصوت حاد. اكتفيت بالصمت، فتابعت ياسمينة مؤنبة:

– لمَ يا حلا؟ ألم أقل لك إننا سنتحدث بهذا الشأن بعد الانتهاء من الامتحان؟ قالت مؤنبة.

– حاولت لكنني لم أستطع، أفكر بها كثيراً، لا أعرف ماذا أفعل، أتظنينها علمت الآن.

قلت وأنا التفت حولي بحذر.

– من هذه؟ عمن تتكلمين؟

جاءني صوت ياسمينة عبر تشويش الخطوط وهي مستغربة من كلامي.

– سارة، أقصد شقيقتها.. هيي ركزي. لاحظت أمي تنظر إلي بغرابة وهي تمر أمامي وترفع حاجباً لأن كلامي لا يروقها.

- آه ، الآن فهمت.

- مبروك! قلت بغيظ.

- أتريدين نصيحتي؟ ذاكري يا حلا ، ذاكري وأعدك بأني سآتي إلى المدرسة غداً مبكرة لنناقش الموضوع.

- طيب، إن شاء الله.. سلام.

وضعت السماعة دون أن أنتظر رد ياسمينة، واتجهت إلى الغرفة مجدداً أحاول التركيز على مذاكرتي كي أتجنب الرسوب في الامتحان ومعاقبة ماما لي.

ذهبت إلى المدرسة في الصباح التالي بوجه منتفخ وعينين نصف مغمضتين، عقدت ياسمينة حاجبيها غاضبة لرؤيتي على هذا الحال. في الحقيقة لم أكن بحاجة للمذاكرة لأنني أتفوق في اللغة العربية على معظم زميلاتي، كل ما يلزمني هو إبداء بعض الاهتمام بالإعراب كي لا أقوم برفع المفعول ونصب الفاعل. بعدها تحدثت وياسمينة كثيراً بشأن وسام وقلقي المتزايد لو علم شيئاً عن ندبتي، لا أدري كيف استطاعت إقناعي بالتوقف عن التفكير لأن كل شيء سيسير على خير ما يرام، وصلت إلى البيت فوجدت هيفاء تهم بطرق الباب، نظرت إلي مبتسمة تلقي التحية، أجبتها بالابتسامة اللطيفة نفسها ودلفنا للبيت معاً، تفاجأت بهيفاء وهي تحاول الاطمئنان على امتحاني على غير العادة.

- الحمد لله كله تمام. تابعت:

- لكن من أخبرك بأنني سأجري امتحاناً اليوم؟

- شاهدت ضوء الشموع المضاءة في غرفتكم طوال الليل، ظننت أنك كذلك تستعدين للامتحانات وعندما سألت خالتو أخبرتني بشأن امتحانك.

ذكرتني هيفاء كيف كنت أخفي روايات الجيب الصغيرة داخل كتبي المدرسية كي

لا تلمحها ماما وتبدأ بالصراخ، هذا تماماً ما فعلته الليلة الفائتة ولكن باختلاف بسيط، لأنني كنت شاردة الذهن بدلاً من قراءة الروايات.

- آه، نعم كنت أذاكر، خفت ألا أتمكن من إتمام المذاكرة إن بقى النور مقطوعاً حتى الصباح. أجبت وشيء ما يصرخ في داخلي «يا الله ما أكزبك».

- أكيد ستحصلين على علامات مرتفعة في كل الامتحانات، أنت فتاة ذكية وطيبة يا حلا.. حلا! هل ستذهبين اليوم إلى حفل عقد قران عادل؟ قالت هيفاء وهي تستند إلى الحائط وتفرك كفيها ببعضهما بعضاً بقلق.

- ممم لا أظن أننا سنتمكن من الذهاب، لأنني وماما سنذهب إلى الطبيب اليوم بعد الظهر، أتمنى أن يحالفنا الحظ يا هيفاء. قلت مبتسمة بحزن وأنا أداعب طرف منديلي.

أومأت هيفاء رأسها بالإيجاب والابتسامة الرقيقة نفسها تزين شفتيها:

- أها، بالتوفيق إذاً.. أتعلمين؟ لارغبة لي في الذهاب ولكني لا أريد أن أزيد شكوك ماما بالأمر.

سارت هيفاء مبتعدة باتجاه غرفتها، توقفت كأنها نسيت شيئاً ما، حركت رأسها يميناً ويساراً، ثم استدارت ومضت نحو غرفتها مترددة، فكرت في البداية أن هيفاء لم تتغير لكنها تحاول التلاعب بي كالعادة، ولكن بعد أن تجاذبنا أطراف الحديث معاً وشاهدت تلك الابتسامة الرقيقة على وجهها وبريق الحزن في عينيها، استبعدت ذلك الاعتقاد السخيف، كنت أعلم بأن أفعالها الصبيانية معي. هي بدافع الغيرة لا أكثر، ولم أكن ألومها لأنني توقعت أنها ستتغير يوماً ما.

أسرعت في تبديل ثيابي استعداداً للصلاة ولحل فروضي في وقت مبكر، كي أكون جاهزة للذهاب إلى العيادة.

عادت ماما اليوم مبكرة من المشغل، وكانت سعيدة لأن يومها هناك لم يكن مرهقاً، شعرنا بالتفاؤل منذ أن خرجنا من الزقاق، حيث ركبنا سيارة تاكسي على عجل، كأنها كانت بانتظارنا، كما أن الطقس كان مشمساً للغاية، ولم تكن السماء رمادية.

٩

حسناً.. سأجري الجراحة

بينما كنا في صالة الانتظار بالعيادة، دلف شابان ومعهما امرأة بدت في الستين من عمرها أو أكثر بقليل، كان أحد الشابين مبتور الساق اليمنى يتكئ على عكازين. شعرت بالحزن لأجله حيث بدا فتياً وسيماً، كانت عيناه الخضراوان تليقان بأنثى شابة، وله شعر داكن تزينه بعض الخصلات الفضية الناعمة. جلست السيدة العجوز إلى جانب ماما بينما جلس الشابان في الجهة المقابلة، عندما جاء دورهم ظلت السيدة ولم تذهب لحجرة الكشف مع الشابين، أشفقت على الشاب والسيدة العجوز التي تبين لنا فيما بعد أنها أمه، أخذت تنوح وتخبرنا قصة ولدها الذي أصيب بعيار متفجر في ساقه، بفعل بعض المستوطنين الذين يقيمون بجانب بيارتهم في الشمال، أخبرتنا كذلك بأنه اضطر للانفصال عن خطيبته قبل العرس بأسبوعين، بسبب إصابته التي لن تمكنه من الزواج.

كاد قلبي ينفجر وحدقتاي تتمددان حتى تخفيا بياض عيني، وأمي تهم بالنهوض وتجذبني من ذراعي لندخل حجرة الكشف، أفزعتني رائحة المخدر القوية ومنظر السرير الحديدي المرتفع بغطائه الأبيض الناصع، شعرت بالرهبة وأنا أنظر للمعدات الطبية فوق المنضدة، المريول الأبيض نفسه والستائر البلاستيكية، القفازات المطاطية، الرائحة، هواء الغرفة، كل شيء بدا مطابقاً لما يقبع في ذاكرتي. تخيلت الطبيب رجلاً طويل القامة أصلع الرأس ذا أنف كبير ونظارة طبية سميكة، إضافة إلى أسنان صفراء بارزة تأخذ شكلاً غريباً كلما فكر في الضحك، سرعان ما تلاشت كل أوهامي المرعبة حينما أبصرت شكله اللطيف

وابتسامته الطفولية الطيبة.

- يبدو أنك تشعرين بالخوف. همس الطبيب برقة وهو يخلع نظارته الطبية.

- ن..نعمم، قليلاً. أجبت متلعثمة وأنا أنظر حولي في جزع.

- لا تخافي يا حلا، حلا.. اسم جميل، أتعرفين ما معنى اسمك؟. قال ملاطفاً وهو ينظر في ملف كرتوني أزرق وضع أمامه.

- أكيد.. أجبته ببرود وقلبي لا يزال يخفق سريعاً، وأنا أحاول السيطرة على كفي الراجفتين.

- جميل.. أنت جميلة واسمك جميل، اسم على مسمى يا حلا.

ساورتني رغبة في نعته بال"كزاب"، لكن خجلي ورهبتي منعاني من التفوه بكلمة زائدة، وضع نظارتيه على عينيه بعد ارتداء قفاز مطاطي مفعم برائحة المعقم، وأخذ يفحص ندبتي متمتماً ببعض العبارات وماما تجيبه بأخرى. بعد أن أتم الفحص طلب مني العودة إلى مكاني، وجلس هو بدوره في كرسيه المتحرك متبسماً.

- جيد.. جيد جداً، همهم الطبيب، شوفي يا حلا، ندبتك ليست بحاجة إلى جراحة كبيرة أو معقدة، هي ليست عميقة إلى حد كبير وهذا لحسن حظك، وقد تحدثت والوالدة سابقاً و شرحت لها الأمر، لكنها مصرة على إجراء جراحة تجميلية لوجهك، يمكننا القيام بذلك هنا في عيادتي، وسيكون مكلفاً نوعاً ما، مشفى الشفاء كذلك يوفر كل التسهيلات لإجراء جراحة مماثلة، ولكن المشكلة هي الوقت، مبدئياً ستقومين بإجراء بعض التحاليل التي أفضل أن تكون في مشفى الشفاء، لأنها ستكون باهظة بعض الشيء خارجاً، بعد ذلك نقرر أين نجري العملية، ومتى، وذلك بالطبع قراركم أنتم.

- طيب.. ولكن.. دكتور؟ هل ستختفي ندبتي تماماً بعد إجراء الجراحة؟ أعني

أنها لن تترك أي أثر؟ هتفت بلهفة.

ضحك الطبيب واحمر وجهه البشوش الممتلئ:

- نعم بالتأكيد يا صغيرتي، ستزول تماماً.

كان هذا الكلام نفسه الذي لقنه الطبيب لمرضته قبل خمس سنوات، كيف سأثق بهذا إذاً! لاحظ الطبيب قلقي، فأردف:

- عندها سيبدو وجهك كوجه طفل وليد، وستبدو غمازتاك أجمل وأنت تبتسمين.

- شكراً لك يا دكتور. تناولت ماما الروشيتة التي دوّن عليها الطبيب أسماء التحاليل التي وجب عليّ إجراؤها، ودستها في حقيبة يدها، شكرنا الطبيب وخرجنا مبتسمتين، غير أن صاحب الساق المبتورة أعاد لوجهي مسحة الحزن وأنا ألمحه يقف بالقرب من غرفة المختبر الخاصة بالعيادة.

عدنا إلى البيت وأنا مرتاحة لما قاله الطبيب، فكرت.. ما أجمل العيش بلا ندبة! أسرعت أبحث عن يوسف لأستعير هاتفه الخلوي، وأرسل رسالة قصيرة لياسمينة لأطمئنها بما قاله الطبيب، كان يوسف يجلس أمام الحاسوب مستخدماً الماسنجر كعادته ولم يمانع بالمرة.

"مرحبا ياسمينة، آسفة ما إدرت أطلبك على تليفون البيت لأنو عمي ما سدد فاتورة التليفون، رحنا عالدكتور وطمني وإن شاء الله بكرا بفهمك شو صار بالتفصيل، سلمي على الجميع، سلام يا عسولة".

يصيبني أحياناً إحساس بالملل من حياتي الروتينية جداً، كل ما أقوم به هو الذهاب للمدرسة، حل فروضي، المذاكرة، التحدث مع ياسمينة على الهاتف أو في المدرسة، الذهاب للمكتبة، قراءة الكتب والروايات، التحدث إلى ماما، التفكير المتواصل بندبتي أو بوسام، لم أكن أخرج من البيت إلا للذهاب إلى المدرسة أو المكتبة أو لبيت السيدة أم وسام، حتى زياراتي لياسمينة باتت قليلة جداً بسبب

ظروف وظيفتي الصغيرة و واجباتي المدرسية.

السطح هو مكاني المفضل وفسحتي الحقيقية، أعتبره نافذتي الخاصة نحو العالم الكبير، كأنه طائرة أو بساط ريح يلف بي العالم بأسره في دقائق، كل يوم أكتشف شيئاً جديداً هناك، كلما صعدت إلى السطح أكتشف كم هي الحياة جميلة وكم أبدع الخالق في صنعها. في الليل، كنت أطيل النظر إلى القمر والنجوم، وفي النهار أتأمل خيوط الشمس الذهبية، السماء الزرقاء، قطع الغيوم الشبيهة بخراف فضية سمينة، بيوت المخيم المتلاصقة كأنها تحتضن بعضها بعضاً، وشعارات الأفراح الملونة التي تنتشر على جدران البيوت والأزقة.

تقول لي ماما "دعي قلبك يبتسم أولاً عندها ستشعرين بالسعادة"، أحياناً يشعرني السفر عبر السطح بالحزن لأنني أدرك كم أنا وأمي وحيدتان في هذا العالم الكبير، أفكر ماذا سيحل بي إن فقدت ماما، أفكر بوسام. هل من الخطأ أن أحب شخصاً مثله خاصة في هذه السن!

أحب الوقوف على السطح ومشاهدة حركة الشارع، والأولاد وهم يلعبون الكرة، والأطفال الذين يتناولون العنبر ويطلقون الألعاب النارية، والفتيات وهن يلعبن الحجلة يذكرنني بنفسي حينما كنت طفلة ألهو في حديقة منزلنا القديم. لم أعد خائفة كثيراً الآن من ردة فعل وسام لو رأى ندبتي أو علم بها، فقريباً سأقضي عليها كما لو أنها صرصار.

أسرعت أقف أمام المرآة، أتخيل منظر وجهي بلا ندبة وأهتف "ما أحلى الحياة بلا ندبة!"

تناولت دفتري و جلست على طرف السرير و بدأت اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الثلاثاء ١-١١-٢٠٠٧

الساعة ٧,٣٨

"اليوم هو يوم جميل، جميل جداً، ذهبت و ماما إلى الطبيب لتشخيص ندبتي. كنت خائفة مما سيقوله بشأني، ظننت وقتها بأني سأقابل رجلاً في الستين من عمره، يرتدي نظارة طبية مزدوجة العدسة "كعب فنجان"، تظهر على وجهه وكفيه العديد من البقع الداكنة بسبب كبر سنه، أصابعه ضخمة مدببة، حاجباه معقودان ولا يبتسم أبداً إلا في حالة الاستعداد لوخز أحد مرضاه بحقنة ضخمة نوعاً ما. كان الرجل الجالس أمامي مختلفاً كلياً عن ذلك الذي في مخيلتي.

بالرغم من كرهي الشديد للمستشفيات والأطباء و كل ما يرتبط بهم، إلا أن ارتياحي لهذا الطبيب جعلني أطمئن كثيراً لوجودي في العيادة و احتمال رائحة المخدر و خفقات قلبي المتسارعة، طمأنني الطبيب و أخبرني بأن ندبتي ستزول كلياً بعد إجراء الجراحة، كان كل ما علي القيام به الآن هو إجراء بعض التحاليل استعداداً لبدء إجراءات الجراحة.

في العيادة شاهدنا شاباً مبتور الساق لا أدري لمَ شعرت بالأسى لأجله، لربما لأنني كنت أعرف بأن أمله في الشفاء معدوم، وكل ما يمكنه القيام به هو استبدال ساقه المبتورة بواحدة بلاستيكيه، لا أدري لمَ ذكرني ذلك الشاب ب (لينا)، تلك الفتاة في صفي. لينا التي تضحك منها كل الفتيات حين تحاول الإنشاد أو القراءة أو إلقاء إحدى الدعابات، البارحة جاءت معلمة التوجيه و الإرشاد وطلبت منا عمل أي شيء نحبه في حصتها المفتوحة لذلك اليوم، فجأة أفصحت لينا عن رغبتها في الإنشاد ،كانت لينا تعاني من صعوبة واضحة في اللفظ، وما إن وقفت أمامنا و بدأت في الإنشاد حتى ضحكت منها كل الفتيات.

بكت لينا حزناً و خجلاً من رد فعل الفتيات، دفنت رأسي بين ذراعي و رحت أبكي شفقة عليها وأنا أشيح بوجهي كي لا يراني أحد، أجمل ما في الموضوع أن المعلمة غضبت على الفتيات غضباً شديداً و طلبت منهن الاعتذار للينا بسبب سوء تهذيبهن و قسوتهن معها، اعتذرت الفتيات للينا التي كانت تقف مطأطئة الرأس ووجهها مبلل بالدموع، وسرعان ما اعتلت الابتسامة الساذجة وجه الفتاه المسكينة وعاودت الضحك من جديد، رفعت رأسي من فوق المنضدة أنظر باتجاه ياسمينة التي كانت عيناها الملتهبتان تجيبان عن أسئلتي الكثيرة..

يتبع ٧,٥٥

كان التيار الكهربائي لا يزال مقطوعاً عندما استيقظت أستعد للذهاب الى المدرسة، فاضطررت للخروج دون كي منديلي المجعد، لم أتناول إفطاري و ذهبت بمعدة خاوية حيث كان علي إجراء التحاليل التي طلبها الطبيب، حضرت أمي لاصطحابي وقت الفسحة. اقترب مني شاب بدين يملك وجه طفل، لف قفازاً مطاطياً حول ذراعي وطلب مني إغلاق قبضة يدي لسحب الدم، لم أتألم لكني بكيت كالأطفال، طلب منا الشاب العودة الأسبوع المقبل لاستلام النتائج. اشتريت لي ولماما ساندويتش فلافل وآخر لياسمينة، إضافة إلى علبتي عصير جهينة مانجو لأن ياسمينة تحبه كثيراً، اقتسمنا الأشياء وأخبرتها عن مغامرتي في مشفى الشفاء.

طلبت من ياسمينة المرور ببيتنا في طريق العودة كي تساعدني في انتقاء ما أرتديه لأذهب به لبيت أم وسام اليوم، لم أكن أملك الكثير من الملابس، لذا لم تكن حيرة ياسمينة كبيرة، فقد ضاعت كل أغراضي تحت أنقاض منزلنا القديم. بعد أن أخرجنا كل محتويات الخزانة و نبشنا كل الأدراج، وقع اختيارنا على بنطال جينز أزرق وقميص زهري إضافة إلى جاكيت أزرق داكن من البوكليت الناعم، ومنديل أزرق بلون البحر تزينه خطوط فضية رفيعة.

أصرت أمي على بقاء ياسمينة لتناول طعام الغداء معنا. بقيت وأمضينا وقتاً ممتعاً، أعارتني ياسمينه حذاءها الجلدي الأسود ذا الرقبة الطويلة، لأنني لم أكن أملك سوى حذائي المدرسي "الكوتشي" و حذاء آخر خاص بالمناسبات السعيدة!

١٠
الحزن الذي لفنّي والمخيم
لا عيد، لا بهجة، لا..

بينما كنت ويوسف نهم بإيصال ياسمينة إلى البيت، ثم نمضي في طريقنا لبيت السيدة أم وسام، سمعنا صوت انفجارين عنيفين ارتجفت على إثرهما أسقف بيوت المخيم جميعها. أسرع يوسف لأحد الحوانيت القريبة يسأل ما إذا كانت الطائرات الإسرائيلية قصفت منزلاً أو سيارة، وانتفضت بلا وعي أتذكر حادثة قصف منزلنا القديم. سرعان ما تبين لنا أنها غارات وهمية تشنها الطائرات الإسرائيلية في سماء غزة الصغيرة.

واصلت ويوسف طريقنا وحيدين بعدما أوصلنا ياسمينة، بدأ يتحركش بي ويسألني عن سبب تأنقي الزائد و«شياكتي» المفرطة اليوم، بقيت صامتة ولكن قلبي كان يرقص من السعادة لأنني أثرت إعجابه، مما يعني أن وسام سيجدني جذابة بهذه الملابس. أصر يوسف على الصعود معي إلى الشقة حيث كان التيار الكهربائي مقطوعاً عن المنطقة، ولم يحبذ صعودي على السلالم وحيدة في العتمة. لم أمانع إذ كان شكل يوسف هذه المرة لا بأس به.

فتحت لنا شقيقة سارة المتزوجة الباب، حيث كانت في زيارة إلى بيت أهلها. سعدت بلقائي وأخبرتني أن سارة والسيدة أم وسام دائمتا الحديث عني وعن «شطارتي» في اللغة الإنجليزية وبراعتي في انتقاء الكتب والروايات. بحثت في أرجاء المكان بنظرات حذرة علني ألمح وسام هنا أو هناك، بدوت مرتبكة وأنا ألمح

ظلاً وصوت خطى رجل قادم باتجاه الصالون، امتلأ المكان برائحة الـ «أولد سبايز» التي ذكرتني برائحة والدي بجلابيته البيضاء وهو ذاهب لصلاة الجمعة، شعرت بخيبة أمل وأنا أقف احتراماً لأبي وسام الذي بادرني بإلقاء التحية وكفه ممدودة باتجاهي، ارتبكت وأنا أضع كفي الصغيرة في كف الرجل وهو يبتسم لي برقة أشعرتني بأنني أشتاق لأبي أكثر وأكثر، كم هي محظوظة سارة لأنها تملك أباً كهذا! من المؤكد أنها تشعر بالسعادة والفخر لأن هذا هو والدها.

لم أنتبه سوى لبذلته الرمادية بخطوطها اللبنية الرفيعة جداً، وربطة العنق اللبنية كذلك، كان معطفه مخملياً تفوح منه رائحة العطر إضافة إلى رائحة السجائر الخفيفة، شعره كان كثيفاً لامعاً كشعر وسام وبدا لائقاً بلون بذلته.

غادر الرجل رفقة ابنته، وجاءت أم وسام تلقي التحية وتقدم لي كأس عصير، جلست أنتظر وأنتظر أن يظهر وسام ولكن دون جدوى، إلى أن جاء موعد عودتي للبيت، ولم أنل شيئاً سوى رؤية يوسف الواقف بالباب ينتظرني، ويلوح بسلسلة فضية بحركات دائرية في الهواء.

لربما لم يحالفني الحظ هذه المرة، لكني سعدت برؤية والد وسام الذي بدا طيباً للغاية، أشعر بالغبطة لأجل سارة، فهي سعيدة الحظ لأن والدها على قيد الحياة. كنت أشتاق للمس كف والدي وتقبيله أو الركض لمعانقته أو الاختباء خلف كتفيه العريضتين، هاربة من ماما حين تود قص شعري أو تقليم أظافري، أبي كان طيباً للغاية. كنت سأبدو مفتخرة به أمام سارة حين تراه هي أو أي من صديقاتي، كان يملك العديد من البذلات وربطات العنق الثمينة، وكم كان يبدو وسيماً حين يرتدي معطفه المخملي الأزرق الداكن، بياقته العريضة المفعمة برائحة الـ «أولد سبايز»، وجيبه المليئة بقطع الحلوى الصغيرة والشيكولاتة، كي يتناولها حين يحترق عنده السكر، أبي كان رجلاً عظيماً، أحببته لأنه كان طيب القلب مع كل الناس، أبي كان يبكي. يقول يوسف ابن عمي إن الرجل لا يعرف البكاء، البكاء

مهارة لا تتقنها سوى النساء، والرجال لايعرفون له طعماً. لم أقتنع بكلام يوسف، اعتبرته مجرد هراء.

غادرت عائدة إلى المنزل برفقة يوسف كالعادة، وكنت محبطة لأني لم أقابل وسام بعد أن قمت بتجهيز نفسي جيداً للقائه، تبادلنا أطراف الحديث عن دروسه وأصدقائه ونصحته بالابتعاد عن رفقة السوء لأنه لم يستفد منهم سوى مشاهدة الأفلام المشينة وتدخين السجائر، بدا مقتنعاً بكل حرف أقوله بما يخص السجائر، لكنه لم يبدِ أي اهتمام بحديثي الذي يراه «سلبياً» عن الأفلام والصور التي يخبئها في جهاز الحاسوب لمبادلتها مع الشلة. بالرغم من أن يوسف كان فتىً شقياً كمعظم الأولاد في مثل سنه، إلا أنه كان شاباً محافظاً يهتم بمشاعر الآخرين، ويحرص على شرف أسرته وحارته مثل معظم شباب المخيم الطيبين.

بدأت علاقتي بيوسف وهيفاء تتغير إلى الأفضل، بدأت أشعر أنهم أسرتي بالرغم من عدة أشياء ما زلت أضعها في الحسبان، لكنهم أولاً وأخيراً أسرتي التي لا يمكنني العيش من دونها.

مر أسبوعان إضافيان، ولم يحدث بيني وبين وسام أي لقاء حتى فقدت الأمل في رؤيته مرة أخرى، كنت دوماً أحاول الاستفسار من سارة عن مواعيد مجيئه إلى البيت، وعن حياته التي تبدو غريبة غامضة نوعاً ما، أخبرتني بأنه كثيراً ما يذهب لزيارة شقيقته الكبرى وزوجها واللعب مع أطفالهما، أو يمضي وقته رفقة أصدقائه أو لعب البلياردو في أحد المقاهي، تعجبت عندما أخبرتني بأن وسام يحب قراءة الروايات والكتب المنوعة، وأن أكثر ما يحبه سلسلة روايات الجيب المصرية، إضافة إلى الروايات الرومانسية. هذا شيء إضافي يجذبني إلى وسام.

كان علي الذهاب للمكتبة قبيل آخر الأسبوع، كي أعيد تجديد ما استعرته من الكتب حيث لم يسعفني الوقت لإتمام روايتي «آن في المرتفعات الخضراء» و «شمس

حمراء في الصباح»، على غرار إحدى روايات غريب عسقلاني التي انتهيت منها منذ مدة طويلة. حاولت إقناع هيفاء بالذهاب معي إلى المكتبة، لعلها تجد شيئاً يعجبها لكنها «فضلت البقاء في البيت ومشاهدة التلفاز.

استمرت الاغتيالات الإسرائيلية لعدد من كوادر الفصائل الفلسطينية وغيرهم من المدنيين، الذين كانوا يقضون نحبهم نتيجة ما يسميه الاحتلال بالـ «خطأ غير المقصود»! لف المخيم سواد وعتمة لم نستشعرهما قبلاً. استشهد عادل وبكاه كل بيت في المخيم، بكينا عروسه التي كانت تنتظر أن يذهبا سوية لحجز فستان العرس. لم يكن عادل كادراً في أي فصيل فلسطيني، كل ما قام به هو ركوب سيارة أجرة تم قصفها، ومن ثم تبين أنها سيارة مدنية قصفت عن طريق الخطأ. عادل لم يرتكب ذنباً إلا ذنب كونه فلسطينياً يعيش في إحدى مدن القطاع، بكت هيفاء كثيراً وهي تشعر بالخجل والضيق من نفسها، لحملها تلك الكراهية المخبأة لعادل وعروسه، لم يستطع أهالي المخيم استرجاع نبض الفرح في قلوبهم سريعاً، إذ كان عادل شاباً محبوباً والكل يكن له الاحترام. مرت أسابيع ونحن على الحالة نفسها، لا أعراس لا زغاريد، لا بهجة.

مرت أيام عيد الأضحى سريعة بلا طعم أو بهجة، روتينية للغاية كأنها أيام عادية وربما أسوأ، خيم حزن ثقيل على كل بيت، وبدأ كل الأهالي يستذكرون أحباءهم الذين فقدوا، انتشرت خيام العزاء في معظم أزقة المخيم، وبدأت العائلات تهاتف الإذاعات المحلية لإرسال التهاني لذويهم من الأسرى في السجون الإسرائيلية.

الأطفال وحدهم هم الذين جعلوا لأيام العيد الثلاثة نوعاً من الاختلاف والتغيير، بمفرقعاتهم ومسدساتهم المائية، وهم يصرخون ويصيحون فرحين بملابسهم الجديدة الملونة، حتى وإن كان معظمها من البالة، لايهم المهم أنهم سعيدون ويمكنهم تناول اللحم المشوي والحصول على بعض النقود التي يعطيها لهم الأقرباء كـ «عيدية»، لشراء ما يحلو لهم من الحلوى و رقائق البطاطس التي يعبدونها.

كان الكل يحاول التخفيف عن أبي عادل وإخراجه من جو الوحدة والحزن، فيمازحه رفاقه «كم رغيف أكلت عالفطار يا أبو عادل؟ والله كرشك زغران» أو «كم كيلو لحمة ناويين تشووا اليوم؟ والله مش خسارة بهالكرش» يقول أحدهم وهو يربت على كرش أبي عادل الضخم، ويدغدغه، فيضحك أبو عادل ودمعة صغيرة تترنح على جفنه الأحمر المنتفخ.

أغلق أبو عادل دكانه وبقي في البيت لأكثر من شهر، وكم كان يعتصرني الألم وأنا أسير أمام حانوته ولا أجد صناديق البرتقال والتفاح الندية، تزين بوابة الحانوت وأبو عادل يصرخ «زي العسل»، أو حين كنت أقف على السطح ولا ألمح عادل يسير حذراً في الزقاق، خوفاً من اتساخ بذلته الداكنة أو حذائه الجديد.

هذه هي حياة المخيم التي بدأت أحبها وأعتادها الآن، لم أعد أخجل من رائحة السمك في بعض الأزقة، ومن تعليقات الفتيات السخيفة على حياة المخيم، أو الأطفال المتسخين بالطين وهم يأكلون العنبر ويركضون حافي الأقدام، يبكون لكي تعطيهم أمهاتهم نصف شيقل لشراء رقائق البطاطس أو الفستق.

لم أعد أخشى أن يتسخ طرف بنطالي الجينز أو بزتي المدرسية، بفعل برك مياه الأمطار المنتشرة في كل زقاق من المخيم، لا يهمني الآن لو رأتني ناهد أو غيرها أعبر زقاقنا الضيق وأطرق باب بيتنا المتواضع، حقاً إنني ما زلت أشعر بالضيق من عمي، لأنه لا يعير أي اهتمام لتلك الثقوب التي تملأ سقف البيت وتمنحنا كمية لا بأس بها من الأمطار والرطوبة كل شتاء.

عندما أستيقظ كل صباح أقرأ الفاتحة لوالدي وخالي، وأدعو الله أن يمنح السعادة والأمان لكل عائلة في المخيم وغيره، وألا يدق الفقر باب أي منهم في أي يوم من الأيام. عندما تعلمنا في المدرسة عن بنت الشاطئ المصرية «عائشة عبد الرحمن» شعرت بأنني أود أن أصبح مثلها يوماً ما، وأن أتحدى كل قيود حياتي لمساعدة نفسي ومساعدة الآخرين، أن أهب عقلي وخيالي لكل طفل أو شاب أو

فتاة في مثل سني لم يتمكنوا من العيش بسعادة وأمان.

كنت أشتاق لأمي كثيراً، تعود من المشغل الساعة الثالثة والنصف وهي منهكة تماماً، تتناول طعامها وتخلد إلى النوم لساعة أو اثنتين، وبعدها تبدأ العمل على قطع الملابس والأقمشة التي أحضرتها معها من المشغل، ولا تنتهي منها حتى تدق الساعة التاسعة، فلا يتسنى لنا الحديث عن كل شيء كما في السابق، مما كان يشعرني بالوحدة، ولا أجد من يؤنس وحدتي سوى هيفاء التي تمضي معظم الوقت على التلفاز أو خارج البيت رفقة خالتو أم يوسف، ولا يتسنى لي الجلوس معها لأكثر من نصف ساعة.

منذ يومين فقط، منحتني أم وسام مرتبي الصغير حيث أضفته للنقود التي قمت بادخارها في حصالتي البلاستيكية الزرقاء. بدأت أعدها فكانت المحصلة ثلاثمائة وعشرة شواقل، لم يكن مبلغاً كبيراً، لكنه كان أكبر مبلغ أتحصل عليه دفعة واحدة من مجهودي الشخصي، مما أشعرني بسعادة كبيرة، ظننته كان كافياً لشراء هدية ماما، لأنني لم أعد مضطرة إلى شراء قارورة كريم جديدة، خصوصاً وأنني ذهبت للطبيب منذ عدة أيام، وبعد رؤية نتائج التحاليل طلب مني العودة هذا الأسبوع لتحديد موعد الجراحة بعد وضعي على لائحة الانتظار في المشفى، للحصول على دور لإجراء العملية.

استأذنت ماما بحجة الذهاب إلى المكتبة برفقة ياسمينة للبحث عن كتاب يساعدني في عمل بحث اللغة العربية الذي طلبه منا الأستاذ خليل، أسرعت وياسمينة للدكان الذي شاهدت عنده الشال والثوب المطرز، ولحسن الحظ وجدت طلبي لايزال معلقاً هناك عند الزاوية، لكن السيء في الموضوع أن ثمن الثوب وحده كان ثلاثمائة شيقل!

شعرت بخيبة أمل كالتي اعتدتها منذ نعومة أظفاري، وبدأت أشك بأنني فتاة

منحوسة بلا شك، عرضت علي ياسمينة إقراضي المبلغ المتبقي لشراء الثوب والشال معاً، لكني لم أرد إلا شراء هدية لماما من مجهودي أنا وحدي دون مساعدة من أحد، حتى وإن كان أقرب الناس إلى قلبي، لم يكن أمامي أي خيار سوى شراء الشال المطرز وحقيبة جلدية سوداء منتفخة بعض الشيء، تلائم الشال وتتلاءم ومقدرتي المادية.

عندما عدت إلى البيت، كانت ماما نائمة بهدوء في فراشها وهي تضع إحدى كفيها أسفل رأسها، دخلت الحجرة بهدوء حتى لا أوقظها وخبأت الكيس في الخزانة. عندما استيقظت ماما انتظرت أن تتم صلاتها، وطلبت منها إغلاق عينيها، وقمت بوضع الحقيبة في حجرها والشال حول كتفيها، وطوقت رقبتها بذراعي وذقني تلامس رأسها من أعلى، وطلبت منها فتح عينيها لترى المفاجأة.

كانت فرحتها كبيرة كما توقعت، وأخذت تفتش الحقيبة وتقلبها، تتحسس ملمسها الطري، أخذت تتحسس الشال على كتفيها في لهفة، والدموع تترقرق في عينيها الحانيتين، ثم أخذت كفي الصغيرة المتعرقة وقبلتها، وطبعت بدوري قبلة خفيفة على خدها، وأنا أحكم ذراعي جيداً حول عنقها النحيل الناعم وهي تردد «ياحبيبتي..».

ذهبت وأمي للطبيب للاستفسار عن إجراءات الجراحة، فأخبرنا أن علينا الانتظار لفترة أطول، لأن مشفى الشفاء كان يعج بالشهداء والجرحى، حيث يتوجب أن تعطى لهم الأولوية، لم يكن هنالك مكان شاغر لاستقبالي أو استقبال أي مريض ممن يمكن تأجيل علاجهم لفترة أطول، تمالكت نفسي وأنا أشعر برغبة في البكاء لما قاله الطبيب. راح ذلك الانتظار الثقيل يقيدني من جديد ويشل تفكيري، حاولت أمي أن تسأل الطبيب لو كان بالإمكان إجراء الجراحة في عيادته الخاصة أول الشهر المقبل، اعتذر بسبب انشغاله الدائم بالمشفى وحالات الطوارئ.

بدأت حياتي تتعقد من جديد وبدأت علاقتي بأمي وأفراد الأسرة تتدهور، وذلك بسبب إحباطي الشديد، بدأت أرى الكوابيس نفسها حتى في يقظتي، وبت أشعر بالرعب في داخلي يكاد يأكلني، كلما فكرت بتأجيل موعد الجراحة. أكثر ما كنت أخافه هو أن تزداد الأوضاع سوءاً في غزة إلى أن تتعقد حياتي بشكل سيء.

مر أسبوعان إضافيان حتى تحسنت الأمور، قامت ماما بمهاتفة الطبيب وأخبرها بأنه يمكنني إجراء الجراحة آخر الأسبوع، في حال أرسل الصليب الأحمر المساعدات التي وعد بها، وبدأت أنتظر أمام شاشة التلفاز وأراقب شريط الأخبار ليل نهار.

وصلت المساعدات بالفعل وحددنا مع الطبيب موعداً لإجراء جراحتي في الثالث عشر من الشهر، بدأت أهيء نفسي لاستقبال (حلا) الجديدة والحياة السعيدة التي سأحظى بها بعد التخلص من الندبة، فرح الجميع فرحاً شديداً لأجلي، وبخاصة صديقتي ياسمينة التي وعدتني بشراء علبة شيكولاتة من النوع الفاخر فرحاً بعودتي بعد إجراء الجراحة.

بدأت في ترتيب حقيبتي الصغيرة استعداداً لرحلتي نحو الأمل، وضعت فيها الصابون والمناشف الصغيرة، إضافة إلى ملابس داخلية وعلبة مناديل معطرة، ولم أنس فرشاة أسناني والمنظف وقطعتين شيكولاتة جالاكسي وعلبة جبنة «لا فاش كي ري»، النوع الذي أحبه. أصيبت ماما بنوبة من الضحك عندما شاهدت محتويات الحقيبة، وبخاصة علبة الجبنة. كانت قد اشترت لي مرآة صغيرة مذهبة ووضعتها في الحقيبة، بعد أن أعادت ترتيب محتوياتها على طريقتها الخاصة.

١١
إخفاق جديد وبصيص أمل

كانت الساعات التي تأتينا فيها الكهرباء هي ساعات فرح وتهليل، يبتهل الأطفال ويصفر الشباب في حين تسرع الأمهات لغسل الملابس وكيّها أو خبز العجين، ما أحلى رائحة العجين حين كنت أشتمها وأنا أقف فوق السطح، أراقب أضواء المراكب الصغيرة وهي تتهادى فوق صفحة المياه، كنت أرى طيف أبي في كل موجة بحر تُقَبِّل أطراف الشاطئ بحب، وأتذكر كلمات خالي الرقيقة في كل استنشاقة لرائحة الخبز الساخن.

أسرعت أنهي فروضي المدرسية عندما أضيء الحي، وأنا أضحك على صفارات الأهالي الرنانة وهم يهللون كالعادة بعد انقطاع للتيار، دام قرابة اثنتي عشرة ساعة حتى ظن الكل أن المخيم سيظل غارقاً في العتمة بقية اليوم أو حتى اليوم الذي يليه، شكرت الله كعادتي لأن الموتورات يمكنها حل أزمتي عندما ينقطع التيار في الثالث عشر من الشهر أي بعد غد، ومن المنتظر أن ينقطع التيار منذ ساعات الصباح الأولى حتى الثامنة مساء كاليوم، أنهيت فروضي وأنا أشعر بسعادة لا مثيل لها لأنني سأخلد للفراش، وسيمضي اليومان سريعاً وتأتي ساعة النصر الكبير الذي سأحظى به.

كانت فرحتي أكبر عندما التقيته صدفة، كان وسام يقف في شرفة الصالون حيث كنت وسارة معتادتين أن نأخذ الدرس. اختلفت وسارة في طريقة نطق كلمة

Conversation وأقنعتها بأن نطقي للكلمة هو الأصح، أخبرتها عن اختلاف اللكنات في أمريكا وغيرها، والفارق بين التهجئة الأمريكية والبريطانية للكلمات، وجلبت لها العديد من الأمثلة لتسهيل الأمر عليها، ووعدتها إن قامت بحفظها عن ظهر قلب، أن أهديها سواراً كسواري الفضي الذي أحبته. دلف وسام فجأة إلى الصالون وهو يلوح في الهواء كأنه يبعثره، فهمت فوراً أنه يحاول طرد رائحة السجائر التي كان يتناولها خفية في الشرفة.

- عفواً. قال وسام هامساً وهو يسعل بشدة:

- لم أقصد مقاطعتكما.

- لا بأس. أجبت باختناق وأنا أحترق لشدة خجلي.

- آنسة حلا.. أليس هذا هو اسمك؟ قال بتردد ومن ثم تابع كأنه لا ينتظر أية إجابة. أنت حقاً تثيرين إعجابي بل وإعجابنا جميعاً بثقافتك، بالرغم من صغر سنك، ماما وسارة تتحدثان عنك ليل نهار، حتى بابا الذي لايملك وقتاً للحديث بات يعرفك تمام المعرفة، الكل لاحظ تحسن مستوى سارة واهتمامها الشديد بفروضها المدرسية، وخصوصاً فروض اللغة الإنجليزية، منذ أن بدأت تدرسينها.

احمرت وجنتاي وشعرت بهواء الغرفة يلتهب من حولي ويخنقني، وكنت أجد صعوبة كبيرة في تحريك لساني.

- أشكرك، سارة فتاة ذكية ونشيطة و.... هربت الكلمات مني سريعة وبدأ نبضي يتسارع.

- أخبرتني سارة أنك قارئة جيدة وتحبين التنويع في قراءاتك، أهذا صحيح؟ تابع وسام بتثاقل وهو يسير باتجاه الباب ليستقر بقربه.

- نعم.. أظن ذلك، أنا أحب القراءة والتنويع. أجبت هامسة مرددة الكلمات ذاتها ببلاهة.

- جميل جداً، أنا كذلك أحب القراءة، وأظن أن الست سارة أخبرتك كل شيء عن رواياتي المخبأة في أدراج المكتب، أبي لا يحب أن يراني منشغلاً عن رسوماتي الهندسية بأية رواية أو كتاب مهما كانت قيمته .

- أمي تفعل معي الشيء ذاته. قلت لاهثة تنبهت إلي سارة التي كانت تنقل نظراتها الخبيثة اللطيفة بيني وبين شقيقها الذي تنبه هو الآخر لها فأردف:

- طيب.. أظن أنني أشغلكم عن الدرس، أستأذن.

خرج وسام من الغرفة وعاد بعد أقل من ثانية يبتسم بخبث:

- حبيبتي سارة؟ أنت لم تريني أدخن في البلكون صح؟

ابتسمت الصغيرة بمرح:

- صح، كما أنك لم تأخذني معك في نزهة يوم الجمعة، وتجعلني أستخدم حاسوبك المحمول وقتما أريد، أليس كذلك يا أخي الحبيب؟

أجاب الشاب وهو يصر على أسنانه:

- بالطبع يا حلوتي! بالتأكيد سيسعدني القيام بذلك.

ضحكت وسارة كثيراً ونحن نفكر با"التوريطة" التي ورط بها وسام نفسه، أخبرت سارة والخالة أم وسام عن موعد جراحتي، وأنني لن أتمكن من المجيء طوال الأسبوع المقبل، لأنني سأمضيه في بيت صديقتي ياسمينة. تقبلتا الأمر رغم استغراب أم وسام في البداية، لأنها لم تكن تعلم بأمر الندبة ولم تتنبه لوجودها. عندها تأكدت من صدق سارة، وكيف أنني كنت مخطئة حين ظننت أنها ستفشي السر بسبب سذاجتها وصغر سنها.

ما جعلني فرحة، أن وسام نفسه لم يبد أي اهتمام بملامح وجهي أو ينظر إلي بشك أو ارتياب، مما يعني أنه لا يعلم بأمر الندبة ولن يعلم بها إلا إذا تحدثت أمه عنها في وجوده، وهو احتمال ضعيف نوعاً ما لأنه لايمضي الكثير من الوقت مع العائلة.

اليوم هو الثلاثاء، أي لم يتبق سوى يوم واحد لإجراء الجراحة. اليوم الذي انتظرته منذ خمس سنوات لاستعادة شيء من حياتي التي فقدت، لن يهمني شيء بعد الغد، كل شيء سيبدو جميلاً حين أتخلص من هذا العبء الذي يؤرقني منذ سنوات، كان اليوم يوم عيد بالنسبة إلي، لا أظن أني فرحت في حياتي قدر الفرحة التي غمرتني. تسارعت خفقات قلبي بشكل جنوني حتى بدأت فرحتي تمتزج مع خوفي الكبير، كانت أصابعي باردة كالرصاص وبدت أظافري رمادية كلون سماء لندن المعتمة.

كعادتي عندما أتوتر، بدأت في أكل أظافري وأنا أنتظر أن يجيب الطبيب على هاتفه المحمول، بعد أن جاءني الرد تمنيت لو أنني لم أقم بإجراء تلك المكالمة، أو تجهيز الحقيبة أو إخبار أي شخص بموعد العملية، بدوت كأن أحدهم سكب علي برميل ماء بارد، تصلبت في مكاني وبي رغبة شديدة في البكاء، شردت في اللاشيء وعيناي مغرورقتان بالدموع. اعتذر الطبيب وأخبرني أن علينا تأجيل الجراحة ريثما يصل طبيب التخدير، حيث أغلقت المعابر مجدداً وحجز على معبر رفح ولم يسمحوا له بالدخول، والطبيب لا يملك خياراً إلا انتظار رفيقه الذي لا يثق بأن غيره من أطباء التخدير يملك ما عنده من كفاءة وخبرة، خصوصاً وأن غزة الآن مغلقة تماماً ولا يمكن للأطباء الأجانب الدخول إليها والمشاركة في أي عمليات تجميلية أو غيرها كما في السابق.

اغرورقت عيناي بالدموع أكثر ولم أحتمل، وأنا أنظر إلى سماعة الهاتف وأضغط عليها بشدة، حتى تخيلت أنها ستتهشم في قبضتي. حاولت ياسمينة تهدئتي

وإقناعي بأنها مشيئة الله، كما حاول الجميع إقناعي بالشيء نفسه، لكنني لم أتمكن من الإصغاء ولم تكن تعني لي كلماتهم أي شيء، كانت شبيهة بوشوشات خافتة تصلني عبر إحدى الغرف البعيدة ولا يمكنني إدراك معناها.

وقفت شاردة أنصت لكلام الطبيب الذي أضعت نصفه، وأنا أفكر بذلك الانتظار الذي بدأ يطول ويطول، كأنه لن ينتهي. وقف الجميع يحدقون بملامح وجهي التي أخذت في التشنج والانكماش، وبادر الطبيب أخيراً "طيب" خافتة، أظنه لم يتنبه إليها، وأسرعت أركض باتجاه السطح باكية لعل الهواء البارد قادر على إيقاظي من صدمتي، أو بث الحياة في جسدي المنهك، وقفت هناك أفكر كم كنت مخطئة حينما وثقت بكلام الطبيب، لم أكن أريد تحمل المزيد من الانتظار والبكاء وتحمل حملقة الآخرين وتكبد العناء في إخفاء ذاتي، إلى متى سأعيش في هذا الخوف إلى متى سأبدو كالهاربة من نفسي ومن الآخرين؟ مللت حياة الخوف والترقب التي أعيشها، مللت هذا الانتظار الذي يتوج بالإخفاق المتكرر، مللت انتظار رحمة الآخرين.

بدا شعري الأشعث يتطاير في الهواء، ربتت ياسمينة بكفها الدافئة على رأسي، تحاول تصفيف شعري كما كان، والكل يتمتم من حولي تمتمات ما زلت لا أدرك معناها، لكني استطعت تمييز صوت أمي من بينها، وهي تحاول تهدئتي ولا أعرف كيف تمكنت من ذلك بسحر صوتها الحاني.

كنت أرقد في فراشي تنساب عبراتي حارة بلا وعي مني، كانت ياسمينة تجلس بقربي على طرف الفراش وهي تمسك كفي وتدعكه بأصابعها، وتحاول إلقاء بعض الدعابات لإخراجي من حالة الكآبة التي أعيشها، اضطرت ماما لتركنا والذهاب إلى المشغل، ووعدتني بأنها ستجلب لي حلويات "أصابع زينب" التي أعشقها، وطلبت من ياسمينة البقاء رفقتي إلى أن تعود هي وبحوزتها "أصابع زينب" كي نتناولها مع الشاي الساخن.

طلبت ياسمينة أن أحدثها عن آخر زيارة لي إلى بيت السيدة أم وسام، وأن أحدثها عن سارة وعن عائلتها، ياسمينة كانت تعرف كل شيء عن أفراد تلك العائلة وعن علاقتي بهم، وربما ملت حديثي الدائم عنهم، لكنها تحاول جلب موضوع يمكنه استثارة انتباهي.

عادت ماما من المشغل، وكالعادة كان في حوزتها كيس كبير من النايلون المقوى، تضع فيه بعض الأقمشة التي تحتاج إلى تعديل. لوحت بكيس أسود في يدها الأخرى وعرفت على الفور أنها أصابع زينب. قفزت من الفراش ألقي نفسي بين ذراعيها، أضحك بمرح استعداداً لتناول حلوياتي المفضلة. وبينما كانت ماما وياسمينة تضحكان مني بكثرة، دلفت هيفاء الحجرة وفي يدها صينية الشاي، وتبعتها خالتو أم يوسف وفي يدها صينية بها طبق فارغ، تبادلنا جميعاً نظرات مرحة وأخذنا نضحك على منظر خالتو أم يوسف، وهي تسير بصينية عليها طبق فارغ، وتذكرنا حينما كنا نلعب ونمثل أننا نستقبل ضيوفاً ونحمل أطباقاً وفناجين فارغة لتقديمها للضيوف، جلسنا جميعاً على الأرض وبدأت هيفاء تصب الشاي في أكواب شفافة، وأنا أشعر بالدفء ينبعث في جسدي من الدخان المتصاعد من حواف الأكواب، تاركاً قطرات صغيرة تزحف على جدرانها ببطء.

لن أنكر أن إخفاقي في إجراء الجراحة لأربعة أسابيع متتالية بعد الإخفاق الأول قد زاد الخوف والشك في داخلي، مما أثر سلباً على تحصيلي الدراسي وعلاقتي بأهل البيت وبصديقاتي في المدرسة، لكنني أدركت ولحسن الحظ أنني لم أخفق مؤخراً في توطيد علاقتي بوسام وبهواياته. كان يحدثني عن قراءاته ويطلب مني أن أحدثه عن قراءاتي، وكان يستمع إلي باهتمام كبير، ويبدي اهتماماً أكبر بتحليلي الشخصي للنصوص التي نتشاركها سوية. ارتحت نوعاً ما بعدما علم بأمر ندبتي، وحدثته بشأن جراحتي والانتظار الطويل الذي أتحمله منذ خمس سنوات، وقد اكتفى بالتعليق "الحلو عمرو ما بيكمل.."

أخبرني بأنه من الأفضل انتهاز فرصة قريبة لإجراء الجراحة قبل أن تسوء أحوال البلاد، لم يبد لي وسام كغيره من الشباب الذين يصبون معظم اهتمامهم على الفتيات، على ملامحهن وطريقة حديثهن وارتدائهن للملابس، بدا مختلفاً عنهم إلى حد كبير، أعرف أن الشاب يكذب لو أخبر فتاة أن شكلها لا يعني له الكثير. وسام كان من النوع الذي أسميه كاذباً، وأحب إقناع نفسي بالعكس، كان وسام يختلس النظر إلي في بعض الأحيان، أو يبدي إعجابه بشخصيتي أو براءة ملامحي، لكنه لم يكن من النوع الذي يطيل التأمل في تقاسيمي كما كان يفعل يوسف ابن عمي وشلته الذين يمضون معظم أوقاتهم في التسكع أمام المدارس، واللحاق بالفتيات أو الوقوف عند ناصية أحد المحال التجارية أو محلات البوظة في حي الرمال، لمراقبة الفتيات اللواتي يرتدين بناطيل جينز من النوع الضيق.

كثيراً ما كنت أتمنى لو كنت شاباً لأتسكع خارج البيت حتى وقت متأخر من الليل، أو أدخن السجائر أو النرجيلة في أحد المقاهي، أو أضع بعض الكراسي البلاستيكية أمام باب البيت وأجلس ورفاقي نتبادل النكات، و نتجمع حول كانون النار، ننتظر أن يغلي الشاي داخل الإبريق حتى يصبح لونه كلون الخروب.

تناولت دفتري الصغير وأخذت أقلب صفحاته المعطرة، فأدركت أني لم أدون شيئاً جديداً منذ مدة، جذبت انتباهي عبارات كنت دونتها ذات مرة من قبل: "الانتظار.. هذا الشيء العجيب الذي يتلاعب بعقولنا وعواطفنا كيفما يريد ووقتما يشاء، أحياناً يكون الانتظار جميلاً.. حينما ننتظر ما نسميه الأمل، فنشعر بأن انتظارنا يمنحنا الراحة والسكينة، لأننا لا نعلم ما يخبئه لنا القدر، وربما كان ما يخبئه لنا ليس بالأمر الجيد، فننتظر ونقنع أنفسنا بأننا حين ننتظر نكون أفضل وتدوم راحتنا لوقتٍ أطول."

١٢
ها قد بدأت أبصر النور

لم أكن بحاجة إلى إعادة ترتيب حقيبتي حيث كان كل شيء جاهزاً منذ المرة الأولى، كل ما كان ينقصني هو دس رواية "آن في المرتفعات الخضراء" في جيبها الكبير لأتم قراءتها أثناء وجودي في بيت ياسمينة، ما زلت أذكر كيف استقبلت ذلك الخبر المبهج، وأنا أضغط على كفي أمي أتوسلها ألا تكون كلماتها مجرد وهم أو مزاح.

كنت أهم بكتابة فروضي عندما سمعت طرقات ماما الخفيفة على باب الغرفة، مصحوبة بلحن مألوف.

- تفضلي. همست وأنا اعتدل في جلستي.

- هل أقاطعك. همست ماما وهي تسعل سعلات خفيفة متلاحقة وفي عينيها ألف ابتسامة.

- بالطبع لا.

اقتربت أمي لتجلس بجانبي على الفراش وما زالت الابتسامة نفسها تعلو وجهها.

- ماما؟ هل من مشكلة؟ تبدين.. . قلت بصوت خفيض وأنا أقترب من ماما أكثر، ولا أجد كلمات ملائمة لوصف ذلك البريق في عينيها.

- نعم يا حلا هنالك أمر مهم، أحمل لك خبراً سيسعدك للغاية. همست ماما وهي تلتقط كفي بين كفيها الدافئتين.

- كم أنا سعيدة ياحبيبتي. تابعت بالنبرة نفسها.

- أمي أرجوك أخبريني ماذا هناك. امتزجت لهفتي بقلقي وقد بدأت خفقات قلبي تتسارع، وأخذ نبضي يعلو حتى تخيلته يطرق آذان أهل المخيم جميعاً.

- لقد وصل.. . قالت ماما وهي تضغط على كفي بقوة أكبر وابتسامتها تتسع.

- من من الذي وصل؟ همست بلهفة.

- طبيب التخدير، وصل ليلة البارحة. هاتفت الطبيب وأخبرني.. . قاطعت ماما بلهفة وقد اغرورقت عيناي بالدموع.

- ماما، أرجوك أخبريني أنها ليست مزحة.

- لا ليست مزحة ياحلا، ستجرين الجراحة بعد يومين وهذا مؤكد. همست وهي تحيط وجهي بكفيها.

- ماما.. هل أنت واثقة؟ أأنت متأكدة أننا لن نخفق هذه المرة.

- نعم يا حبيبتي أنا واثقة ومتأكدة، اطمئني.. هذه المرة كل شيء سيكون على خير ما يرام ولن يوقفنا شيء، أعدك بأن تجري الجراحة مهما كلف الثمن.

تابعت ماما واثقة كما لم أرها من قبل. لم أجد كلمات مناسبة لتسعفني، فأسرعت أرتمي بين ذراعيها أعتصرهما وأبكي بحرارة لا مثيل لها، فيرتفع صوت نحيبي أكثر وأكثر.

الآن شيء واحد بات يشغل تفكيري بعد أن صرت متأكدة مائة بالمائة أنني سأجري الجراحة خلال يومين، وهو إن كنت سأبقى على قيد الحياة أم سأموت إثر جرعة

مخدر زائدة، كما حدث مع ابن خالة ماما منذ عامين أثناء إجرائه لعملية الزائدة الدودية! عندما أخبرت ياسمينة بذلك الهاجس، نعتتني بالمهووسة لأنني دائمة الشك والتخوف من كل شيء حولي، ونصحتني بالصلاة والدعاء لله أن يبقيني على قيد الحياة، وهي لا تزال مستغربة من طريقة تفكيري المرعبة.

كان هذا ما فعلته حقاً، صليت كثيراً ودعوت الله أن يطيل في عمري كي أتمكن من صيام الأيام التي أفطرتها في رمضان، وعمل أشياء جيدة تقربني من الله أكثر، ولربما كان من ضمنها البدء في هدنة قصيرة المدى مع ناهد وشلتها.

قبيل الجراحة بيوم..

كان هذا اليوم من ضمن إجازتي المدرسية التي سأفوز بها لمدة أسبوعين، كنت أجلس في الصالون في انتظار سارة، وأنا أتابع ستائر الشرفة الرقيقة، تتطاير بفعل هواء البحر في الاتجاه نفسه، كان وسام يقف بالباب مبتسماً. اقترب مني ماداً كفه الضخمة نوعاً ما، دسست كفي في يده وأصابعي تتكمش داخلها، سحبت كفي مسرعة والدماء تتدفق ساخنة لتلهب وجنتي.

- "أهلاً" قلت بخجل.

لم يكترث وسام لخجلي، أخذ يلوح بالرواية في اتجاهي:

- رائعة جداً، استمتعت بقراءتها كثيراً.

التقطتها متمتمة:

- جيد أنها أعجبتك، أنا لم أتم قراءتها بعد.

- أنصحك بأن تفعلي، "آن في المرتفعات الخضراء" رواية جميلة جداً. هل قرأت "عالم صوفي" تابع وسام وهو يتقدم ليجلس في الأريكة المقابلة لأريكتي.

- نعم قرأتها، ولا أظنها تشبه آن في المرتفعات الخضراء، أعجبتني كثيراً، وأجمل

ما فيها أنها تناسب كل الأعمار، أظن أن الكاتب كتبها لابنته صوفيا، يظن بعضهم أنها تتحدث عن الصوفية! ههههههههه.

ضحكنا بمرح لأن هذا الظن غير صحيح، ولاحظت أن خجلي قد زال، وأنني لا أود أن أفعل شيئاً غير البقاء بالقرب منه والتحدث إليه كما نحن الآن. كنت معجبة ببنطاله الجينز الأزرق والتي شيرت السوداء، وقد طبعت عليها كلمة صغيرة بيضاء باللغة اليابانية أو الصينية لست أدري. بادرني وسام:

- أخبريني يا حلا، متى ستقومين بإجراء الجراحة؟.

- غداً إن شاء الله، لذا من الجيد أنك أعدت لي الرواية كي أكمل قراءتها قبل عودتي إلى المدرسة. قلت وأنا أتجنب النظر في عيني وسام مباشرة.

- أها جيد، لكني أستغرب لمَ قمت بإعارتها لي وأنت لم تكملي قراءتها، ذلك يفقدك تسلسل الأفكار ومتعة القراءة، هل أنا على حق. قال وسام وهو يعتدل في جلسته نوعاً ما، كأنه يستعد لمغادرة المكان.

- نعم، معك حق، ليس من عادتي فعل ذلك ولكن..

تلعثمت لا أدري كيف أتم عبارتي وهو يحدق بي بخبث، وأنا أسعل سعلات رقيقة مفتعلة أستخدمها كوسيلة حين يداهمني الخجل من شيء ما، أو حين أضع نفسي في مأزق محرج، هذا يشبه تماماً حين تنظر في ساعتك وأنت لست بحاجة لمعرفة الوقت، فقط لتشغل نفسك عن النظر باتجاه الآخرين كي لا يلحظوا ارتباكك.

- بالنسبة لجراحتك أقول تفاءلي، فأنت تبدين قلقة، تفاءلي بالخير تجديه، كما يقولون، بالرغم من أنه لا يوجد في غزة ما يدعونا للتفاؤل، آسف لهذا ولكنها الحقيقة، لا أدري لماذا تملكني شعور قوي بإخبارك تلك العبارة السخيفة، أنا حقاً أعتذر، أشعر بأنني لست على ما يرام مؤخراً. تنهد وسام وهو يفرك كفيه ببعضهما بعضاً، وينفخ بينهما لربما ليشعر نفسه بالدفء، بالرغم من أن الجو لم يكن بارداً إلى هذا الحد.

- لا عليك، في الواقع مللت الانتظار، لكنني لا أملك حلاً بديلاً، سأنتظر وأتفاءل مهما كانت النتائج.

قلت بحزم وأنا ألمس ندبتي بعفوية. تابع غير مكترث بكلماتي:

- في الحقيقة أنا أفكر جدياً بالسفر إلى الخارج لإتمام دراستي، والعمل في أي مكان غير غزة، غزة الآن تغرق.. هه.

همس وسام بيأس وعيناه مركزتان على الستائر الرقيقة حيث كنت أنظر منذ دقائق.

شعرت بالحزن والصدمة لرغبة وسام في ترك غزة والرحيل، فلم أعد أشعر بأن للحياة أي طعم في غيابه، حقاً لست أدري إن كنت سأمتلك هذا الأمل والرغبة في متابعة حياتي، لو لم يكن وسام جزءاً منها.

تابع:

- تصوري أنني أضطر لمغادرة فراشي كل ليلة عند الساعة الثالثة صباحاً، كي أتمكن من إتمام رسوماتي الهندسية كي لا أفسدها على ضوء الشمعة المتراقص، ناهيك عن صوت الموتورات المزعج وندرة المواد وسوء الخدمات وإلى آخره.. أتعلمين أنا لا أحب الظلم ونحن هنا في غزة وفي فلسطين كلها مظلومون، لذا أفكر بالرحيل كي لا أكون مظلوماً، ولا أملك القدرة على رفع هذا الظلم، حلا هل تفهمين؟ لست أدري إن كانت كلماتي صعبة عليك ولكن..

قاطعته بغضب مراهقة:

- وسام أنا لست صغيرة، اعذرني ولكن رغبتك في ترك غزة دليل على ضعفك، فأنت تريد الهرب وليس الرحيل، أوافقك الرأي بأننا مظلومون، لكننا إن لم نساعد أنفسنا فلن نجد من يساعدنا ويخفف عنا هذا الظلم الذي تتحدث عنه،

وسام أنت تتحدث عن قسوة الحياة في غزة وأنت تقيم هنا، ووضعكم المادي ممتاز كما يبدو لي، لا أدري ما ستكون ردة فعلك لو أقمت في المخيم فقط لليلة واحدة، أو لو تذوقت طعم البرد والجوع لساعات.

صمت وسام لبرهة فتابعت:

- أتعلم؟ لقد مرت علي أوقات كرهت فيها غزة وحياتها، وكرهت نفسي وتمنيت الموت، لكن حينما فكرت بأن تحقيق أحلامي وبقائي في غزة سيغيظ الإسرائيليين، أعجبتني فكرة الحياة هنا، لطالما سألت نفسي عن السبب الحقيقي، في رغبتي المفاجئة في الحياة والتأقلم مع المخيم وكل شيء حولي، الآن فهمت لماذا أرغب في ذلك، إن كان بقاؤنا في غزة أو القطاع لن يفيد فخروجنا منها سيزيد الأمور سوءاً، وهذا ليس كلامي أنا، صديقاتي أخبرنني بأن غزة لاتستحق العناء، لكنني أظن أنها تستحق، وأهلنا يستحقون.

ركزت نظراتي على كوب الماء أمامي، أحاول الإشاحة بوجهي عن وسام الذي اتجه نحو الباب، ليسمح لسارة بالجلوس بدلاً منه وهي تعتذر عن تأخرها، التفت فجأة مبتسماً:

- حلا، اطمئني، لن أخيب أملك! أتمنى لك التوفيق يوم غد.

كان عطر وسام يفوح من كل زاوية في روايتي التي أعرتها له منذ مدة، انتهزت فرصة وجودي بالمصعد وحيدة، وأخذت في تقليب صفحاتها بسرعة، قبل أن أقابل يوسف عند الباب باحثة عن ورقة تحمل كلمة "أحبك" أو رسالة غرامية كتبها لي وسام، تعبيراً عن حبه وإعجابه بي. لم أجد لا هذا ولا ذاك، واكتفيت بالاستمتاع برائحة العطر النفاذة التي كانت تذكرني بوسام وهو مهندم، بغض النظر عن بيجامته الزرقاء وشعره الأشعث معظم المرات.

لم أستطع النوم تلك الليلة جراء تفكيري بيوم الغد الحافل بالمفاجآت، وتفكيري بحديث وسام ورغبته في ترك البلاد. راقبت أشعة الشمس وهي تتسلل عبر الغيوم الداكنة نوعا ما، وتتخلل الهواء البارد الندي، والعصافير لم تغادر أعشاشها بعد، لم أشعر برغبة في تناول إفطاري واضطررت لأكل قطعة خبز صغيرة، إضافة إلى نصف كوب حليب كي أتمكن من تناول حبة المضاد التي طلب مني الطبيب تناولها بعد الإفطار استعداداً للجراحة.

- أتساءل يا ياسمين إن كنت سأرى هذه الشوارع مجدداً أم لا. همست وأنا أرتجف وأخاطب ياسمينة الجالسة بقربي في المقعد الخلفي لسيارة التاكسي.

- بالطبع سترينها وستملين منها يا حلا، أرجوك تحلي بالشجاعة، جراحتك بسيطة وليس هنالك من داعٍ لأن تخافي. أجابت ياسمينة وهي تضع كفها على كفي مبتسمة.

أخذت أطل برأسي عبر النافذة أراقب حركة المارة والسيارات وإشارات المرور والأشجار والباعة المتجولين وشرطة المرور وأصحاب البسطات والحوانيت والعربات الصغيرة، ودمعة متجمدة لا تفارقني أرغب بمنحها حريتها المطلقة، كنت أشعر بدفء الشوارع وحلاوة قطرات الأمطار المتجمعة، بدأت أدعو الله في صمت أن أبقى على قيد الحياة، وأنا أعلم بأنها مجرد جراحة صغيرة لن تستغرق وقتاً طويلاً.

كانت ماما تنظر إلي مبتسمة كي تطمئنني، وما إن وصلت السيارة باب العيادة، حتى بدت خفقات قلبي تعلو وتعلو، وبدأت أتعرق، وألحت علي رغبة في البكاء، دلفت إلى صالة الانتظار وقد طلب مني مساعد الطبيب توقيع استمارة تعهد بأنني أقوم بإجراء الجراحة بناء على رغبتي، مما زاد خوفي وإحساسي بأن الأمر جدي أكثر مما كنت أتوقع.

اصطحبني إلى غرفة العمليات رجل قصير القامة نوعاً ما، يضع نظارة طبية دائرية الشكل، وطلب مني خلع حذائي ومنديلي أولاً، ثم الاستلقاء على الفراش المرتفع. كان هناك رجل آخر داخل الغرفة يهم بارتداء لباس أخضر، ويضع كمامة على أنفه وفمه، وانهمك في تجهيز بعض المعدات الفضية المخيفة وأنا أحسّ بالغثيان، بسبب رائحة المخدر القوية، كل ما أذكره هو أن الرجل متوسط القامة طلب مني الكشف عن طرف وركي، استعداداً لوخزة الحقنة، فتناثرت برأسي ذكريات السنوات الخمس الماضية. كانت خفقات قلبي المتلاحقة وعيناي المغرورقتان بالدموع، والإبرة البلاستيكية الكبيرة "الكانيولا" الملصقة بيدي، وهمهمات الرجلين ودردشتهما معي في محاولات منهما لتنويمي، هي آخر ما استقر في ذاكرتي وأنا أحاول تجاهل قرص المصباح الكبير الدائري المركز فوق وجهي، وتتوسطه عدة مصابيح صغيرة تتوهج هي الأخرى.

فتحت عيني على اتساعهما أنظر في الظلال أمامي، كانت تلك هي وجوه ماما وياسمينة وهيفاء والخالة أم يوسف يتطلعن إلى وجهي مباشرة، يتمتمن بأشياء تتردد على مسامعي بتثاقل، وأنا أبكي بصوت مرتفع كالأطفال. لا أحب تذكر ذلك الغثيان والألم اللذين شعرت بهما وأنا أهم بالنهوض من فراشي بمساعدة ماما، وذلك المرار الذي سيطر على فمي وحلقي، أحسست بأن ملامحي موصولة ببعضها بعضاً بألف خيط، وكلما حاولت التحرك أو التنفس أصابني ألم كبير. كنت أنظر من نافذة السيارة مجدداً، وأنا غير مصدقة أن كل شيء قد انتهى، وأنني ما زلت على قيد الحياة، أتنفس وأتنفس وأتنفس.

مر أول يومين وأنا لا أجرؤ على التفكير بنتائج جراحتي لشدة الألم الذي انتابني، نظرت إلى وجهي في مرآة ماما المذهبة لأكثر من مرة، وتمنيت نزع الضمادة لرؤية وجهي وكيف يبدو، عندما ذهبنا للطبيب كي ينزع الضمادة، أحسست بأن كل شيء حولي تجمد، حتى تكات الساعة باتت ساكنة، حبست لهاثي وانتظرت أن ينزع الطبيب الضمادة بشكل كلي.



طلب مني الوقوف للتحقق من مظهري الجديد أمام مرآة مربعة الشكل مثبتة على الجدار خلف مكتب الطبيب، دسست يدي في جيب معطفي وأخرجت المرآة الصغيرة، وقلبي يكاد يقفز خارج ضلوعي، أحاول استراق نظرتي الأولى إلى ذلك العالم الجديد الذي سأراه، تسارعت خفقات قلبي أكثر وأكثر!

وأخيراً.. أخيراً، امتلأت عيناي بدموع كثيرة، لكنها هذه المرة دموع الفرح واللهفة لاستقبال حياتي السعيدة، حياتي الجميلة بلا أية كوابيس أو قلق، بلا حملقة أو خوف أو انتظار.

لأول مرة منذ خمس سنين أتنفس الأمل وأرتشف النور. كانت الألحان الموسيقية تنساب من الراديو داخل السيارة وأنا شاردة في عالمي الجديد، أشعر بطعم الأمل ينساب بهدوء داخل رئتي كما ينساب ذلك اللحن العذب في كل خلية في جسدي، كأن اللحن صنع خصيصاً لأجلي. كانت النسائم الباردة تلمس وجهي بخفة، كأنها تهمس لي بأنني سأكون كما حلمت دوماً بأن أكون، لربما لن أكون قادرة على استرجاع حياتي كما كانت، لكنني سأتمكن من استرجاع بعض لحظات الفرح التي فقدتها منذ أعوام.

هنأني الجميع وكانوا سعداء لأجلي، ووعدوني بعمل حفلة صغيرة فرحاً بخروجي سالمة من الجراحة عندما أعود للبيت، لم أمكث كثيراً عند ياسمينة. عدت إلى البيت بعد ثلاثة أيام، حيث كان اشتياقي ولهفتي لرؤية أمي أكثر مما أحتمل.

عندما وصلت إلى زقاقنا، كان كل شيء يبدو مختلفاً عما اعتدت، بدا الزقاق متسعاً أكثر من ذي قبل، نظيفاً، متوهجاً، الأطفال يصرخون ويركضون خلف بعضهم بعضاً بلهفة وابتسامات بريئة تزين وجوههم. شعرت بأنني أخلق من جديد، كل خطوة أخطوها على أرض الزقاق غير المنبسطة، تفتح لي عالماً لم أكن أراه من قبل.

دخلت البيت برفقة أمي وياسمينة، وقلبي يكاد يزغرد فرحاً. نظرت إلى زوايا البيت وتفاصيل غرفتنا كأنني أراها للمرة الأولى، شعرت كما لو أنني لم أكن أبصر النور طوال السنوات الخمس الماضية، والآن أفتح عيني على عالم جميل لم أكن أنتبه لوجوده، عالم يملؤه الفرح والأمل، عالم فيه كثير من الحب وقليل من التعاسة.

ساعدتني أمي في تبديل ملابسي وتوضيب أغراضي، وغادرت الغرفة. ثرثرت وياسمينة قليلاً وشكرتها على دعوتها لي للبقاء في منزلهم بضعة أيام، ثم غادرتني وهي مسرورة لأجلي.

فتحت خزانتي والتقطت دفتري القرمزي وأنا أتحسسه. همست له"ياالله كم أنا سعيدة لأنني عدت كما كنت وكما أحب أن أكون دائماً". طويت الصفحات القديمة وبدأت صفحة جديدة، وقلت:

"كل شيء تغير الآن.. لن أرهقك مجدداً بحكاياتي المؤلمة عن ندبتي، لن يبدو عالمي كئيباً معتماً كما كان طوال السنوات الخمس، الآن يبدو كل شيء مختلفاً بالنسبة لي، وسيبدو كذلك لك أنت أيضاً، سأذهب إلى مدرستي مبكراً، وابتسامة كبيرة تعلو وجهي، سأمازح كل الفتيات وأتجاذب معهن أطراف الحديث، حتى وإن كنت أراه مملاً، سأذاكر دروسي أولاً بأول وأكتب فروضي المدرسية كأي طالبة مجتهدة، حتى دروس التكنولوجيا لن أهملها، ولن أغضب المعلمة بإهمالي المتكرر، سأحب مدرستي وكتبي وكل شيء في حياتي، أشعر بأنني بت أحب كل شيء على هذه الأرض، حتى ناهد بت أحبها، فلم يعد هنالك ما يدعوني لليأس والقلق.

ولن يحملق بي الناس باستغراب حين أذهب بصحبة ماما إلى السوق أو أي من الأماكن المكتظة كأنني من كوكب آخر، لن أشعر بالحزن من شفقتهم أو

استغرابهم بعد اليوم، لن أخشى نظرات الشبان، خصوصاً شلة يوسف ابن عمي، ولن أضطر إلى شراء المزيد من علب الكريم وإخفائها عن أمي في درج ملابسي الداخلية.

فكرت كم أنا محظوظة وكم هي حياتي جميلة! سأخرج من عزلتي لاستقبال مزيد من الفرح، لم يكن تخلصي من الندبة وحده هو الذي يجعلني أشعر بكل هذا الفرح، بل لأنني رأيت حقائق لم أكن أراها من قبل، بالرغم من وجودها بالقرب مني لأعوام كثيرة، لم أكن أدرك كم أنا محظوظة لأنني أمتلك أماً حنوناً، وعائلة دافئة! وشاباً مشاكساً هو يوسف وفتاة رقيقة هي هيفاء!

كان علي أن أشكر الله ليل نهار لأن لي صديقة وفية تحبني هي ياسمينة، وأصدقاء محترمون هم عائلة أم وسام. لم أفكر يوماً بأنني محبوبة إلى هذا الحد من كل أهل المخيم البسطاء الطيبين، وأننا جميعاً نمثل عائلة واحدة، نفرح معاً ونحزن معاً، وأنه يمكنني الاستمتاع بجمال البحر والسماء حتى في أوقات انقطاع التيار الكهربائي!

كان عليَّ أن أتذكر اللحظات الدافئة التي نقضيها معاً على ضوء الشموع، نرتشف الشاي أو السحلب الذي تصنعه لنا خالتو أم يوسف، وترش فوقه القرفة المطحونة برائحتها الزكية، ونحن نضحك من رنين هاتف يوسف المحمول، وهو يطلق تلك الطبول والزغاريد. ولن أنسى وسام الذي بدأ يمنحني الأمل وطعماً آخر للحياة. ولا بد من أن أبي وخالي سعيدان لأجلي الآن، كم أتمنى لو أنهما لا يزالان على قيد الحياة، لرؤيتي على هذا الحال!

أجمل ما في الأمر أنني لن أخيب ظن وسام بي عندما ألتقيه المرة المقبلة."

يتبع ٩:٤٣ مساء

استلقيت على فراشي أحملق بالسقف الذي تبقع الرطوبة بعض أجزائه، تذكرت فجأة أنني لم أتم قراءة رواية "آن.." التي استرجعتها من وسام مؤخراً. رغبت في قراءة بعض صفحاتها، لعلني أطالع وجه وسام بين السطور، شعرت بسعادة وأنا أتذكر رائحة عطره التي تذكرني به.

أخرجت الرواية من الحقيبة، ما زالت بقايا العطر تضمخ أوراقها. بدأت من حيث انتهيت آخر مرة، وبينما كنت أتابع القراءة تنبهت إلى أن إحدى الصفحات كانت مطوية عند نهايتها، إنها الصفحة ١٨١ حيث وضع أحدهم علامة استفهام بقلم رصاص مقابل السطرين:

إذا كـنـت تـحـبـيـنـنـي كـمـا أحـبـك

فـلـن يـفـصـلـنـي سـوى الـمـوت عـنـك

* * *

همست لنفسي وأنا أغمض عيني بارتياح: «أتمنى أن يكون كل ماحدث معي حقيقياً وليس جزءاً من حلم».. شعرت بالنسائم الليلية الباردة المشبعة برائحة البحر وطعم الحرية، وهي تتسلل إليّ عبر النافذة، يصحبها شيء من نور.

السطح هو مكاني المفضل وفسحتي الحقيقية، أعتبره نافذتي الخاصة نحو العالم الكبير، كأنه طائرة أو بساط ريح يلف بي العالم بأسره في دقائق، كل يوم أكتشف شيئاً جديداً هناك، كلما صعدت إلى السطح أكتشف كم هي الحياة جميلة وكم أبدع الخالق في صنعها. في الليل، كنت أطيل النظر إلى القمر والنجوم، وفي النهار أتأمل خيوط الشمس الذهبية، السماء الزرقاء، قطع الغيوم الشبيهة بخراف فضية سمينة، بيوت المخيم المتلاصقة كأنها تحتضن بعضها بعضاً، وشعارات الأفراح الملونة التي تنتشر على جدران البيوت والأزقة.



الصندوق العربي للثقافة والفنون
The Arab Fund for Arts and Culture



مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
Tamer Institute for Community Education

ISBN 978-9950-326-48-4